الفصل الثانى
منوعات وطرائف عن المرأة

أولا : لا تظلموا حواء :

حواء بريئة من الخطيئة الأولى :

إن الفهم الشائع بأن حواء هى التى أَغْرَتْ آدم بعصيان أمْرِ ربه والأكل من الشجرة التى نهاهما الله عز وجل عن القرب منها ، فأخرج الله آدم مع حواء من الجنة بهذه المعصية ـ هذا الفهم ليس له أساس فى القرآن الكريم .

والفهم بأن حواء كانت مستجيبة فى هذه الخطيئة الأولى لغواية إبليس الذى لم يجد سبيلاً إلى آدم غير أن يتذرع له بحواء ليس له أساس فى القرآن الكريم أيضاً .

وإنما هذا الفهم وذاك تأثر بإسرائيليات دسها يهود على فهم المسلمين لكتاب دينهم .

والذى جاء فى القرآن الكريم عن الخطيئة الأولى :

أن كلا من آدم وحواء تواطأا فى الخطيئة بوسوسة من الشيطان وأنهما أخرجا من الجنة لتبدأ الحياة البشرية على هذه الأرض .

وقد كان مُقَدَّرا فى علمه القديم سبحانه وتعالى على آدم أن يعيش على الأرض ويمتحن بالابتلاء بالشر ، وهو الابتلاء الذى يكابده بنو آدم فى حياتهم على الأرض من بدء الخليقة إلى آخر الدهر .

ـ ولنتدبر قوله تعالى فى سورة الأعراف :

obeikandi.com

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ * فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾[1].

ـ وقوله تعالى فى سورة البقرة :

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[2].

والعبرة من هذه الآيات المحكمات : أنَّ كُلاًّ من آدم وحواء كان مُكَلَّفًا .

ـ وأنه إلى كُلٍّ من آدم وحواء كان أمر الله بأن يسكنا فى الجنة ويأكلا منها حيث شَاءَا .

ـ وأنه إلى كُلٍّ من آدم وحواء كان نهى الله تعالى عن القُرْب من الشجرة المحرمة .

---

(١) سورة الأعراف ـ الآيات من ١٩ ـ ٢٥ .

(٢) سورة البقرة ـ الآيتان ٣٥ ، ٣٦ .

وهذا مبدأ تقرير التكليف على الناس جميعًا لا ينفرد به الرجل دون المرأة ، فالمرأة مُكَلَّفَةٌ مثل الرجل سواءً بسواءٍ تحمل تَبِعَةَ عملها ، وتلقى جَزَاءَه ثوابًا وعقابًا ، فالقضية إذن فى آيات الأعراف تتعلق بالتكليف ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .

وفتنة الابتلاء بالشيطان وجنوده أعداء البشر هى التى يوجه القرآن الكريم إليها بنى آدم بصريح الآية فى قوله تعالى :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ (١).

فالمرأة مكلفة وعليها وزرها ، لا يعفيها منه أن زوجها آدم هو الذى نَسِىَ عهد ربه وخانه العزم ، ووسوس إليه الشيطان ، حيث يقول الله تعالى :

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ (٢).

وذلك بصريح الآيات من سورة طه ، وقد نزلت سورة طه بعد سورة الأعراف بخمس سور فى العهد المكى .

ـ ويقول الله تعالى : ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمًا * وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴾ (٣).

وذلك إلى قوله تعالى :

﴿ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ * فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ (٤).

ـ فالعهد كان لآدم .

---

(١) سورة الأعراف ـ من الآية ٢٧ .

(٢) سورة طه ـ من الآية ١٢١ .

(٣) سورة طه ـ الآيات من ١١٥ ـ ١١٧ .

(٤) سورة طه ـ الآيتان : ١٢٠ ، ١٢١ .

ـ ومن آدم كان النسيان والعصيان والغواية .

وصـــدق الله العظـــيم حيث يقـــول : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ ﴾ الآية فكيف نبرىء آدم من الخطيئة الأولى ونلقى بها على حواء وحدها ؟ والله تعالى يقول : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ .

لقد قال الله تعالى للملائكة : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ وإذن فآدم مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى ، ففيم إذن كانت تلك الشجرة المحرمة ؟ وفيمَ إذن كان بلاء آدم ؟ وفيم إذن كان الهبوط إلى الأرض وهو مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى ؟

إن هذه كانت تجربة لهذا الخليفة وإعدادًا . كانت اتعاظًا للقوى المذخورة فى كيانه ، كانت تدريبًا له على تلقى الغواية ، وتذوق العاقبة ، وتجرع الندامة ، ومعرفة العدو ، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين ، إلى الغفور الرحيم ، الله رب العالمين .

إن قصة الشجرة المحرمة ، ووسوسة الشيطان باللذة ، ونسيان العهد بالمعصية ، والصحوة من بعد السكرة ، والندم وطلب المغفرة . إنها هى هى تجربة البشرية المتجددة المتكررة .

لقد اقتضت رحمة الله بآدم أن يهبط إلى مقر خلافته مزودًا بهذه التجربة التى سيتعرض لمثلها بنو آدم طويلا استعدادًا للمعركة الدائبة ، وموعظة وتحذيرًا .

لا تسيئوا فهم هذا الحديث :

قال ﷺ : « النساءُ ناقصات عَقلٍ ودين »[1].

وحتى لا نسىء فهم هذا الحديث نوضح الظروف التى أحاطت به ، والتى تلخص فما يلى :

خرج رسول الله ﷺ فى عيد أضحى ـ وقيل فى عيد فطر ـ إلى المصلى ، فمر على النساء فقال : « يا معشر النساء ، تَصَدَّقْنَ فَإنّى أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أهل النار » .

---

(١) انظر شرح الحديث فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر ـ ج ١ ص ٢٧٩ ، باب الحيض . ونيل الأوطار للشوكانى ـ ج ١ ص ٣٥٢ .

فقلن : ولمَ يا رسول الله ؟ قال : « تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ ، وتَكْفُرْنَ بالعَشِير ـ ما رأيتُ مِنْ ناقصاتِ عقل ودين وأَذْهَبَ لِلُبِّ الرجل الحازم مِنْ إحْدَاكُن » .

قلن : وما نقصانُ عقلنا وديننا يا رسول الله ؟

قال : « أليس شهادةُ المرأة مثل نصف شهادة الرجل ، قلن : بلى

قال : فذلك من نُقصان عقلها ، وأليس إذا حاضت المرأة لم تُصَلِّ ولم تَصُمْ ؟

قلن : بلى . قال : فذلك من نقصان دينها » .

وإن كان هناك رأى للأستاذ الدكتور عبد الحميد متولى فى كتابه مبادىء ونظام الحكم فى الإسلام [1] بأنه لا يُعَدُّ هذا الحديث فى عداد الأحاديث الصحيحة . . . وعلى كل الأحوال فتلك هى الظروف التى أحاطت بهذا الحديث .

فيجب علينا ألاَّ نسىء فهم هذا الحديث أو نسىء استخدامه فى معاملة المرأة ، ولنذكر تكرار توصية الرسول بالنساء ، ومن ذلك : قول الرسول ﷺ :

« ما أكرم النساءَ إلا كريم ، ولا أهانَهُنَّ إلا لئيم » [2].

ويكفِى فخرًا للمرأة أن أول من آمن بالرسول ﷺ امرأة ، وهى زوجته الأولى السيدة خديجة بنت خويلد .

ـ وحين جُمع القرآن رسمًا فى مصحف واحد وُضع لدى امرأة وهى السيدة حفصة بنة عمر بن الخطاب وزوجة الرسول ﷺ وظل محفوظا لديها . فعندما وقعت موقعة اليمامة فى خلافة أبى بكر وقُتِلَ عدد كبير من القراء وتم الجمع الأول للقرآن فى المصحف وضعت هذه الصحف عند أبى بكر ، ثم عند عمر من بعده ، ثم عند السيدة حفصة بنت عمر أم المؤمنين بوصية عمر ، وفى زمن عثمان حدث أن اشتد تنازع القراء فى القراءة ، فرأى عثمان أن يجمع الناس على مصحف واحد ، ولما انتهوا من الكتابة نسخ عدة مصاحف وأرسلها إلى الأمصار ، وبعث مع كل مصحف إمامًا يرشد الناس إلى وجوه قراءته ، وأمر الناس بحرق ما عندهم من المصاحف التى تخالف ما عداها وَرُدَّتِ

---

(١) الطبعة الرابعة ص ٤٣٧ .

(٢) انظر : كتاب الوحى المحمدى للسيد محمد رشيد رضا .

الصُّحُف البكرية إلى السيدة حفصة بعد عرض المصاحف عليها ، وبقيت عندها إلى أن توفيت سنة ٤٥ هـ على أصح الأقوال ، ثم أخذها عبد الله بن عمر بعد ذلك ، حيث أخذها منه مروان بن الحكم والى المدينة من قِبَلِ معاوية ومحاها قائلاً : « إنما فعلتُ هذا لأنى خشيتُ إنْ طال بالناس زمان أن يرتاب فى شأن هذه الصحف مُرتاب»(١).

ثانيًا : نساء الأنبياء معصومات من الوقوع فى الزنى :

قرن الله تعالى الزنى بالكفر والقتل ، وجعله مساويًا لهما فى الفحش وعظم الذنب ، وتوعد الله عزوجل الكافر والقاتل والزانى بمضاعفة العذاب والخلود فى جهنَّم ذليلاً مهانًا ، لقوله تعالى فى وصف عباد الرحمٰن :

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾(٢).

الفاحشة : ويقول علماء التفسير فى معنى قوله تعالى : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾(٣) أنَّ المراد بالفاحشة هنا هى معصية الرسول ومخالفة أمره ومطالبته بما يشق عليه من النفقات .

الخيانة : ويفسرون قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ

---

(١) انظر : المرجع السابق ، والتعريف بالفقه الإسلامى للأستاذ محمد مصطفى شلبى .

(٢) سورة الفرقان ـ الآيتان ٦٨ ، ٦٩ .

(٣) سورة الأحزاب ـ الآية ٣٠ .

﴿ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [1] أن المراد بالخيانة هنا إنما هى الخيانة فى الإيمان، فلم توافقاهما على الإيمان ، ولم تصدقاهما فى الرسالة ، وليس المقصود بالخيانة اقتراف فاحشة الزنى .

فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى الزنى لحرمة الأنبياء .

قال سفيان الثورى : عن موسى بن أبى عائشة ، عن سليمان بن قرم ، قال : سمعتُ ابن عباس رضى الله عنه يقول فى هذه الآية : ما زَنَتَا ، أما خيانة امرأة نوح فكانت تقول : زوجى مجنون ، ولقد كان مصيرها الغرق . وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدلُّ قومَها على أضيافه ، وكان مصيرها الهلاك . وروى الضحاك عن ابن عباس مرفوعًا « ما بَغَتِ امْرأَةُ نَبِىٍّ » .

ويقول فضيلة المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه فى رحاب الكون ـ مع الأنبياء والرسل : « فالنظام الإلٰهى فى الزواج أن تكون الزوجة سكنًا لزوجها ، وأن تكون مَوَدَّةً ورحمة ، فإذا كانت الزوجة سببًا فى الضيق والشر والسوء فإنها تكون قد خانت ، أى انحرفت عن الوضع الإلٰهى الخاص بالزواج .

هذه الخيانة قد يكون أمرها هينًا فى الوضع العام للزوج حين يكون الزوج من الأفراد العاديين ، ولكنها تبلغ الذروة فى السوء حين يكون الزوج من النبيين المرسلين؛ لأنها إذ ذاك تكون خيانة فى حق الرسالة نفسها التى كُلِّفَ الرسول نشرها ، فتكون الخيانة كفرًا . وقد كانت خيانة امرأة نوح كفرًا به وبرسالته ، لقد كذبته وكذبت برسالته » .

ثالثًا : الشخصيات النسوية فى القرآن الكريم :

استعمل القرآن الكريم فى عرض دعوته الكثير من الأساليب ، ومن تلك الأساليب أن القرآن الكريم كان يعرض القيم الأخلاقية من خلال قصص ومواقف ، هذه المواقف تقدم لنا النماذج البشرية ، سواءٌ كان طفلا أو امرأة أو رجلا ، فقد تحدث القرآن الكريم فى بعض المواضع عن قصص الأطفال ، وعن مواقف كان لها الكثير من التأثير ، مثل قصة زيد بن أرقم الذى كشف موقف رأس النفاق عبدالله بن أبى بن

(١) سورة التحريم ـ الآية العاشرة .

سلول، ومن تلك النماذج البشرية التى استخدمها القرآن الكريم المرأة ، فتحدث القرآن عَمَّا ما يزيد على عشرين شخصية نسائية .

(أ) ذكر الشخصيات بالصفات المميزة لهن :

والقرآن الكريم ـ على كثرة مافيه من آيات وسور فى شخصيات دينية من التاريخ الدينى ، ـ قد خص مريم المصطفاة عليها السلام وحدها بالتسمية ، وذَكَرَ الأُخريات بالصفات المميزة لشخصياتهن ، واللافتة إلى موضع العبرة فيهن مثل :

١ ـ زوج آدم :

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١).

٢ ـ امرأة إبراهيم : ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾(٢).

﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾(٣).

٣ ـ امرأة زكريا : ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾(٤).

٤ ـ امرأة عمران : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(٥).

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ٣٥ .
(٢) سورة هود ـ الآية ٧١ .
(٣) سورة الذاريات ـ الآية ٢٩ .
(٤) سورة مريم ـ الآيتان : ٧ و ٨ .
(٥) سورة آل عمران ـ الآية ٣٥ .

٥ ـ امرأة فرعون : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (١)

﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢).

٦ ـ ملكة سبأ : ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (٣)

٧ ـ امرأة العزيز : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ (٤).

﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ (٥).

٨ ـ امرأة نوح وامرأة لوط ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ ﴾ (٦).

٩ ـ امرأة أبى لهب : ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ (٧).

١٠ ـ أم موسى وأخته : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ

---

(١) سورة التحريم ـ الآية ١١ .
(٢) سورة القصص ـ الآية ٩ .
(٣) سورة النمل ـ من الآية ٢٣ .
(٤) سورة يوسف ـ من الآية ٣٠ .
(٥) سورة يوسف ـ من الآية ٥١ .
(٦) سورة التحريم ـ من الآية ١٠ .
(٧) سورة المسد ـ الآيتان : ٤ ، ٥ .

﴿ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾(١).

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾(٢).

١١ ـ ابْنَتَىْ شعيب :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾(٣).

١٢ ـ التى نقضت غزلها :

ومن النماذج النسائية التى تحدث عنها القرآن الكريم أيضًا شخصية ذكرها الله لامرأة كانت تعيش فى مكة قبل مولد النبى ﷺ ، وكانت هذه المرأة تمثل ظاهرة نفسية مرضية ، وهى ظاهرة الاكتئاب والإحباط النفسى ، حيث كانت تعانى من مرض الاكتئاب والإحباط النفسى بسبب العديد من الإحباطات التى تعرضت لها فى حياتها .

وقد قدم القرآن الكريم صورة غريبة لتصرفات تلك المرأة ، فقال سبحانه :

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾(٤).

كانت هذه المرأة تسمى « رَيْطَة بنت عمرو » وسُميت « ريطة »الحمقاء نتيجة لتصرفاتها . كانت تشغل نفسها بأمر عجيب بأن تغزل الصوف وتستأجر الفتيات من

---

(١) سورة القصص ـ الآية ٧ .

(٢) سورة القصص ـ الآيتان : ١٠ ، ١١ .

(٣) سورة القصص ـ الآية ٢٣ .

(٤) سورة النحل ـ من الآية ٩٢ .

مكة حتى يغزلن الصوف معها طول اليوم ، فإذا تم غزل الصوف وفتلته محكماً أمسكت به ونقضته وقطعته لترضى فى نفسها إحساس الإحباط والاكتئاب الذى كان قد تملكها .

والقرآن الكريم حين يسوق إلينا هذا المثل فى تلك الآية يحذرنا من أن يتملكنا الإحباط ، ويحذرنا من الوقوع فريسة لليأس ؛ لأن المسلم قد يكبو على الطريق فى حياته ، ولكن لا يَيْئَس من رحمة الله ، ولا يستسلم ، بل ينهض مرة أخرى ليواصل مسيرته بعزيمة الإيمان ؛ لأن الإنسان فى الحياة يلاقى الصعب ويلاقى السهل ، والمؤمن دائماً مع ربه لا يُؤَثّر فيه الصعب ، بل يزيده صلابة وعزيمة ليمضى فى مسيرة حياته .

كما شَبَّهَتْ هذه الآية الكريمة الذى يحلف ويُعاهد ويبرم عهده ثم ينقضه بهذه المرأة . وما يرَضى إنسان كريم لنفسه أن يكون مَثَلُهُ كَمَثَلِ هذه المرأة الضعيفة الإرادة والعزم ، الملتاثة العقل ، التى تقضى حياتها فيما لا غناء فيه ، فكانت كلما غزلت الصوف نقضته بعد إبرامه وتركته قطعاً محلولة منكوثة (١) .

والله سبحانه وتعالى حين يضرب الأمثال فى القرآن الكريم يريد أن يعطينا الحكمة والموعظة ، ولا يريد أن ندخل فى محاولة حول اسم هذه المرأة أو تلك ، ذلك لأن الأسماء لا قيمة لها ، وإنما القيمة الحقيقية فى الموعظة والحكمة والعمل بها ؛ لذلك لم يُعَرِّف الله تعالى فى كل آيات القرآن الكريم من الشخصيات النسوية إلا مريم بنة عمران ؛ لأن ماحدث لها لم يحدث لغيرها ، لذلك كان التعريف هنا واجبًا ، فكل امرأة تَحْذُو حَذْوَ امرأة نوح وامرأة لوط فى الكفر والخيانة تكون مَثَلا للذين كفروا .

وكل امرأة تحذو حذو امرأة فرعون ومريم بنة عمران فى الإيمان والعفة تكون مَثَلاً للذين آمنوا .

وكل امرأة تحذو حذو « ريَطْةَ الحمقاء » تكون مَثَلاً لمن يقضى حياته فيما لا غناء فيه ، ومَثَلاً لمن يحلف ويعاهد ويُبرم عهده ثم ينقضه ، ومثَلاً لمن يقع فريسة لليأس والإحباط .

---

(١) قاله الفَرَّاء ، وحكاه ابن كثير ، والسُّدِّى ، والقرطبى .

هذه هى الحكمة والعظة التى يريد الله سبحانه وتعالى أن نستخلصها من تلك الأمثال .

ذلك لأن المنهج القرآنى ينصرف إلى المعانى والعِبَر ، والمواقف والصفات ، ولا يهمه الأسماء والأشخاص .

(ب) اختصاص مريم بالتسمية ولمحات من قصتها عليها السلام :

إذا كان الله عز وجل قد خص مريم المصطفاة على نساء العالمين وحدها بالتسمية فى كل سور وآيات القران الكريم ، فما أجدرنا أن نعرض لمحات عن حياتها وحياة المسيح عيسى عليه السلام . لقد ذكر القرآن الكريم مريم فى اثنتى عشرة سورة ، وجاء اسم مريم مكررًا أربعاً وثلاثين مرة . وذكر القرآن الكريم عيسى عليه السلام فى إحدى عشرة سورة منه .

وجاء اسم عيسى عليه السلام مكرّرا خمساً وعشرين مرة ، أكثرها فى سورتى آل عمران ، والمائدة التى ذُكرت فيها ولادته مفصلة .

إن ميلاد عيسى عليه السلام جاء على غير مألوف المواليد من الأحياء فى عالم البشر خاصة ، فهى صورة عجيبة وفريدة ، لا مثيل لها فيما تلد الأمهات ، وقد جعل الله تعالى ـ الخالق المبدع جل شأنه ـ مريم المصطفاة المباركة لتكون معرضاً من معارض قُدرته ، وصَنعته وإبداعه فيما يصنع ويُبدع .

لقد جعل الله تعالى مريم شاهدًا من شهود تلك القُدرة التى أقامها الله تعالى فوق السنين وفوق الأسباب ، لا إله إلا هو القادر جل شأنه ، يُخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى .

خلق أصل الإنسان من غير ذكر وأنثى ، خلق آدم من تراب ، ثم قال له : كن بشرًا سويًا ، فكان .

﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(١) .

(١) سورة يس ـ الآية ٨٢ .

هذا الخالق جل شانه خلق عيسى من نَفْخَةٍ من روحه ، وجعله آية للناس ورحمة منه ، فكان أمرًا مقضيًّا :

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾(١).

وكان مَثَلُ عيسى عند الله كمثل آدم :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(٢).

ومريم الأمة المطهرة المصطفاة على نساء العالمين حين أحست أمها امرأة عمران أنها حُبْلَى بها ، توجهتْ إلى الله جل شأنه بكيانها وبدعائها وبإيمانها تدعو :

﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(٣).

نَذَرتْ ما فى بطنها لله تعالى ظَنًّا منها أنها ستلد ذكراً يصلح للخدمة فى بيت الله :

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾(٤).

والنذر للمعابد لم يكن إلا للصبيان ليخدموا فى المعبد ، (وليس الذكر كالأنثى) ، لكن الله جل شأنه رَضِىَ من امراة عمران إخلاصها وتَقَبَّل نَذْرَها :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾(٥).

ونشأت مريم مباركة بكفالة زكريا رئيس المعبد وشيخ سَدَنته ، وزوج خالة مريم ،

---

(١) سورة التحريم ـ من الآية ١٢ .
(٢) سورة آل عمران ـ الآية ٥٩ .
(٣) سورة آل عمران ـ من الآية ٣٥ .
(٤) سورة آل عمران ـ الآية ٣٦ .
(٥) سورة آل عمران ـ من الآية ٣٧ .

وهو من ذرية هارون الذين صارت إليهم سدانة المعبد . وكان كل كاهن يرغب أن يستأثر بكفالة الطفلة مريم وتربيتها وتوجيهها احتساباً لوجه الله تعالى وتقرباً إليه ، واختلفوا فيما بينهم ، فاقترعوا على مَنْ يختاره الله .

قال السُّدِّيُّ وابن عباس ومقاتل :

« انطلقت بها أمها فى خِرَقِهَا إلى المعبد ، وكانوا يقترعون على الذين يؤتون بهم للمعبد ، فقال زكريا ـ وهو نبيهم يومئذ : أنا أحقكم بها ، عندى أختها ، فَأَبَوْا ، وكانوا سبعة وعشرين رَجُلاً من سدنة المعبد ، وقالوا : نطرح أقلامنا لمعرفة من تكون مريم من نصيبه ، وخرجوا إلى نهر الأردن ، فألقوا أقلامهم التى يكتبون بها ، فجرت الأقلام فى جريان الماء ، وثبت قلم زكريا ، فكان أحق بها فكفلها » . وثبوت القلم كان هو العلامة بينهم ، فسلموا بمريم له بعد أن خرجت القرعة له ليكفل مريم ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ (١) .

وأخذها زكريا لتتعلم خدمة العابدين ، وهداية الضالين ، ومساعدة المحتاجين . واتخذت مريم محراباً تعتكف فيه متعبدة متهجدة .

ووجد زكريا من أمر مريم عجبًا ! كان كلماخرج وعاد وجد عندها من الرزق ما هو ليس فى أوانه ، ولا هذا مكانه ، فكان يتعجب ؛ فهو لاشك أمر غريب .

فكان زكريا يسأل مريم : من أين هذا الرزق ؟ لأنه كان من المألوف أن كل من يدخل المعبد للعبادة ويجد الطفلة الصغيرة مريم يجزل لها العطاء ، ولكن مما هو متوافر فى الزمان والمكان ، ولكن هذه الأرزاق التى ليس هذا أوانها ومكانها شىء غريب وعجيب . وتجيب الطفلة مريم إجابة تشرق بالإيمان ، وتفيض باليقين : إنه من عند الله الذى يرزق من يشاء بغير حساب :

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢) .

(١) سورة آل عمران ـ من الآية ٤٤ .
(٢) سورة آل عمران ـ من الآية ٣٧ .

وزاد إيمان زكريا بربه عز وجل وتعمقت فى نفسه قدرة الله فتوجه إلى الله بجوارحه ووجدانه وبقلبه وعقله إليه وحده ، إلى مَنْ رَزَقَ مريم بِغَيْرِ حِسَابٍ مِنْ رزقه الوفير، توجه زكريا إلى الله يطلب منه ما كان يعتقده مستحيلا ، أن يمنحه الممنوع عليه ، المقطوع منه ، كما منح مريم الرزق الممنوع المقطوع ـ أنْ يهبه الولد :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾(١) .

وكان نتيجة هذا الدعاء الخاشع الحار المنيب ، الدعاء المنطلق من القلب الطاهر الذى عَلَّقَ رجاءه بمن يسمع الدعاء ويملك الإجابة حين يشاء ، كانت الاستجابة التى لا تتقيد بسن ولا تتقيد بمألوف الناس ؛ لأنها تنطلق من المشيئة الإلهية المطلقة التى تفعل ما تريد .

اصطفاء الله لمريم :

ظلت مريم فى بيت الله خادمة تتعبد فى محرابها ، وتتلقى من المعبود جل جلاله فيوضات الرحمة وهَوَاطِل الخيرات ، وتزكَّتْ مريمُ بالعبادة ، وصَفَتْ نفسُها ، ورقَّ شُعورها ، فأصبحت من الصفاء بحيث ترى الملائكة وهى تتعبد فى محرابها ، وإذا بالملائكة المكرمين تتحدث إليها وتناديها :

﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾(٢) .

إنها البشارة الأولى ! إنها الاصطفاء ! إنها الاختيار !

أجَل ، إن الله اصطفىَ مريم لأنْ تكون منها الآية . .

اختارها الله لتتلقى النفخة المباشرة لتلد الكلمة . .

---

(١) سورة آل عمران ـ الآية ٣٨ .

(٢) سورة آل عمران ـ الآيتان : ٤٢ ، ٤٣ .

اصطفاها للأمر المفرد فى تاريخ البشر .

فضَّلها ـ سبحانه وتعالى ـ على نساء العالمين تفضيلاً مطلقاً يرفعها إلى الآفاق العالية ، والمكانة الخالدة الأبدية : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(١) .

بشارة كاملة صريحة ، وإفصاح عن الأمر كله ، بشارة بكلمةٍ مِنَ الله اسمه المسيح ، واسمه عيسى بن مريم .

واتجهت مريم إلى ربها تناجيه وتتطلع إلى كَشْفِ هذا الأَمْر :

كيف يكون ذلك وهى فتاة طاهرة عذراء ، عرفت البشر وهى منهم ، وعاشت بينهم ، وعلمت مألوفهم ؟

إنه أمر يتيه فيه العقل ويَحارُ فيه القلب .

وقالت مريم تناجى ربها فى تعجب واستفهام :

﴿ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾(٢) .

فجاءها الجواب من الله عز وجل :

﴿ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾(٣) .

وقال

﴿ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾(٤) .

وهكذا تزول الحيرة ، ويطمئن القلب . وكانت مريم تقول لنفسها :

---

(١) سورة آل عمران ـ الآيتان : ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) سورة آل عمران ـ من الآية ٤٧ .

(٣) سورة آل عمران ـ من الآية ٤٧ .

(٤) سورة مريم ـ الآية ٢١ .

كيف عجبت من هذا الأمر وأنا أعلم أن الله على كل شيء قدير ؟!

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا * فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا * يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ (١).

نعم كيف تلد امراة من غير زوج ؟!

هذا أمر لم تأت به امراة ، وشيء لم يُعْرَفْ فى سابق الأمر .

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ (٢).

وجاءت المعجزة ! معجزة البراءة !

المعجزة الشاهدة لمريم البتول بالاصطفاء والطهر والعفاف .

﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا * وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا * وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (٣).

---

(١) سورة مريم ـ الآيات من ٢٢ ـ ٢٨ .

(٢) سورة مريم ـ الآية ٢٩ .

(٣) سورة مريم ـ الآيات من ٣٠ ـ ٣٣ .

قال إنى عبد الله :

كلمهم وهو فى المهد أول ساعة من ساعات حياته . .

كلمهم كلاماً واضحاً ككلام الكهول والشباب . .

كلمهم بلسان فصيح ، قال : إنى عبد الله . .

كلمهم ليكون شاهدًا على طُهْرِ أُمه وعلَى عَفافها .

والنطق فى المهد أمر غير مألوف ، أمر خارج عن طبيعة البشر ، ولكن هذا الوليد المختار الذى جعله الله آية للناس بدأ حياته ناطقاً منذ مولده .

إذن فهو سيسلك فى الحياة مسلكاً غير مسلكهم ، ويسير فى سبيل غير سبيلهم ، لقَد صَحَّتِ البشارة !بشارة الملائكة لمريم حين بشَّرَتْهَا بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيهًا فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ومن الصالحين .

فالمسيح عيسى بن مريم تكلم فى المهد ، وأخبر قومه بأن الله قَدَّرَ فى الأزل فجعله نبيًّا ، وجعله مباركاً أينما كان ،وأوصاه بالصلاة والزكاة مادام حيًّا ، وجعله بَرًّا بوالدته ولم يجعله جباراً شقيًّا ! نعم ، لقد جعله مباركاً أينما كان ينفع الناس ، ويشفى مرضاهم ، ويبرىء الأكْمَه والأبرص بإذن الله . وأنه سيعيش فى سلام مِنْ يومِ مولده حتى يوم موته ، ويوم يُبعث حيا .

وقال عيسى عليه السلام لقومه إنه يفعل ما يفعل بإذن الله ، وإنه ليس له من نفسه القدرة على الخَلْق والإبراء ، وإنما ذلك كله بإذن الله .

بعد ذلك عاش المسيح عليه السلام حياته على مألوف المواليد من سائر البشر . . والقرآن الكريم لم يذكر لنا فيما قَصَّهُ لنا عن مولد عيسى بن مريم عليه السلام عن صَمْتِه أو كلامه بعد تلك الوقفة التى وقفها فى المهد دفاعاً عن شرف مولده وطُهر أمه وعفافها .

وعاش المسيح مع أشْقَى شعبٍ عرفه التاريخ ، إنهم اليهود ، عاش فيهم نحوًا من ٣٣ سنة ، وحاولوا قتله وصلبه ، ولكن رفعه الله إليه طاهرًا مطهرًا سليماً .

ويصور القرآن الكريم ذلك ، واصفاً غَدْرَ اليهود بأنبيائهم ، ونقضهم للمواثيق والعهود بقوله :

﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (١) .

ويقول عز وجل عن عيسى بن مريم :

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (٢) .

وبعد

فتلك لمحات من قصة السيدة مريم التى طَهَّرها الله عز وجل ، واصطفاها على نساء العالمين . والتى قال عنها رسول الله ﷺ :

« خير نساء العالمين أربع : مريم ، وآسية ، وخديجة ، وفاطمة » .

رابعاً : حديث القرآن عن المرأة :

تحدث القرآن الكريم عن كثير من مواهب المرأة وأنها لم تكن فى مواهبها الطبيعية بأقل من الرجل .

---

(١) سورة النساء ـ الآيات من ١٥٥ ـ ١٥٨ .

(٢) سورة مريم ـ الآيات من ٣٤ ـ ٣٦ .

تحدث القرآن عن المرأة بما يسجل لها قوة الفراسة ، وحُسن الحيلة وبُعد النظر فى استجلاء الحقائق الغامضة ، وتدبير المُلْك على أساس الشورى .

بنات شعيب وقوة الفراسة :

فحديث القرآن الكريم عن المرأة بما يسجل لها قوة الفراسة نراه فى قوله تعالى عن إحدى بنتى شعيب .

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ (١) .

فإن الأمانة من الصفات الباطنة التى لابد من إدراكها مِنْ عِشْرَةٍ طويلة ، وتجارب متعددة ، وبنت شُعيب هذه لم تَرَ موسى قط إلا حينما ورد مَاءَ مَدْيَن ، ووجد عليها شرذمة من الناس يسقون ، ووجدها مع أختها تذودان ، فقال لهما « ما خَطْبُكما » ؟

قالتا : ﴿ لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ﴾ (٢) .

وهذا القَدْرُ من الرؤية ليس من شأنه أن يُمَكِّن للإنسان من معرفة أسرار النفوس ودخائلها إلا إذا كان قد أُوتِىَ من قُوَّةِ الفِرَاسَة ما أوتيته ابنة شعيب .

قال قتادة ، عن محمد بن إسحاق ، وغيره .

قال لها أبوها : وما عِلْمُكِ بهذا ؟

فقالت : إنه قوى لأنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عَشَرَةُ رجال ، وإنه أمين لأنه لما جئتُ معه تقدمتُ أمامه فقال : كُونى من ورائى فإذا اختلفَ الطريقُ فَاخْذِفِى بحَصاةٍ أعلمُ بها كيف الطريق .

أخت موسى وحُسن الحيلة :

أما حديث القرآن الكريم عن المرأة فى حُسن الحيلة ـ وكيف أنقذت بها طفلاً شاءَتِ المقاديرُ الإلهية ببقائه ليبلغ رسالة من رسالات السماء إلى الأرض ، لتطهير

---

(١) سورة القصص ـ الآية ٢٦ .

(٢) سورة القصص ـ من الآيتين ٢٣ ، ٢٤ .

البشرية من أدران الشِّرْك والوثنية ، ونشر دلائل الهدى والسلم على ربوعها ـ فنراه فى قوله تعالى عن أخت موسى عليه السلام فى سورة القصص :

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ (١)

وكان ذلك حينما ألقته أمه فى اليم خوفاً عليه ، فالتقطه آلُ فرعون ، وقالت امراة فرعون :

﴿ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢) .

وأصبح بذلك فؤاد أم موسى فارغًا إنْ كادت لتبدى به لولا أن ربط الله على قلبها .

وكان الله تعالى قد وعد أم موسى بِرَدِّه إليها قائلا : ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ (٣) .وحينما ألقى موسى فى اليم قالت أمه لأخته « قُصِّيه » أَىْ تَتَبَّعِى أثَره . فأخَذت أخته تتبع أثره بدون أن يبدو منها اهتمامٌ خاص به .

واستمرت فى ذلك صابرة منتبهة يقظة إلى كل ما يدور ممَّا يتعلق بموسى ، حتى إذا كان فى السوق تُعْرَضُ عليه المراضع رَفَضَهُنَّ جميعاً .

ويقول الله تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ ﴾ (٤) .

فتدخلت أخته قائلة : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ (٥) .

فالتفتوا إليها وقالوا لها : وما يدريكِ بنصحهم له ؟ إنْ كنت تعرفين هذا الغلام فدلينا على أهله . فقالت لهم : ما أعرفهم ، وإنما نصحهم له وشفقتهم عليه رغبة فى سرور الملك ، ورجاء رضاه وهباته ومنفعته .

---

(١) سورة القصص ـ من الآية ١٢ .
(٢) سورة القصص ـ من الآية ٩ .
(٣) سورة القصص ـ من الآية ٧ .
(٤) سورة القصص من الآية ١٢ .
(٥) سورة القصص من الآية ١٢ .

فأرسلوها لتحضر منْ أشارت بها ، فجاءت أُمه وقدمت له ثديها ، فالتقمه وأخذ يمتص منه إلى أن امتلأ شبعًا وريًّا .

فقالت امرأة فرعون لأمه : أقيمى هنا فى القصر وتنعمين بكل شىء . فتذكرت أم موسى وعد الله لها : ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ .

وعلمت أن الله لا يخلف وعده ، فقالت فى قوة وشجاعة : لا أستطيع أن أدع بيتى وولدى .

ولما رأت امرأة فرعون تصميم أم موسى سَمَحَتْ لها بأخذه ، فرجعت به إلى بيتها ، وتحقق وعد الله ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ .

ومكث موسى مع أمه مدة الرضاع ، وحفظه الله من كل سوء ، حتى انقضت مدة الرضاع وعاد للقصر فى حفل كبير .

وهكذا يتم تدبير الله للطفل وأمه التى سمعت الإلهام ، فقذفت بفلذة كبدها فى التابوت ، وقذفت بالتابوت فى اليم ، فألقاه اليمُّ بالساحل ، ليأخذه عدوٌّ لله وله ، فيكون الأمن بإلقائه بين هذه المخاوف ، وتكون النجاة من فرعون الذى كان يذبح أطفال بنى إسرائيل ، بإلقائه بين يدى فرعون بلا حارسٍ ولا مُعين .

بُعد النظر واستجلاء الحقائق الغامضة وعدم الاستبداد بالرأى :

بلقيس ملكة سبأ :

أما حديث القرآن الكريم عن المرأة فى بُعْد النظر واستجلاء الحقائق الغامضة ، وتدبير الحُكم على أساس الشورى وعدم الاستبداد بالرأى ، فنراه فيما يحكيه القرآن الكريم عن ملكة سبأ وقصتها مع سيدنا سليمان عليه السلام .

بعد أن أخبر الهدهد سليمان عليه السلام بخبر ملكة سبأ وقومها الذين يسجدون للشمس من دون الله ، كَتَبَ سليمان كتاباً ودفعه للهدهد قائلا :

﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ (١)

(١) سورة النمل ـ الآية ٢٨ .

ولما وصل الكتاب إلى الملكة جمعت رؤساء مملكتها وحدثتهم قائلة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۞ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾(١) . ثم قالت :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾(٢)

ملكة بعيدة النظر ، وتدير حُكْمَهَا على أساس الشورى وعدم الاستبداد بالرأى ، لقد شاورتهم فى الأمر لتَتَبَيَّنَ الرأى الرشيد ، ولكيلا تتحمل مسئولية الرأى وحدها ، وعملاً بالحكمة القائلة : (إذَا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا مَشُورَةٍ) .

قالوا لها :

﴿ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾(٣)

ملكة لديها جيش قوى ، وإذا أمرتهم بالحرب نفذوا أمرها ، ولكنها فكرت فى الأمر طويلا ، فكرت التفكير السليم ، وانتهت إلى رأيٍ ناضج فيه حكمة ، وفيه عمق ، فاستبعدت استعمال القوة والبأس ، واتخذت موقفاً يدلّ على حصافة الرأى وعدم الاغترار بما يبديه الأتباع من إظهار الاعتداد بنفوسهم وقُوَّتِهم ، وعدم الأكتراث بغيرهم، وأدركت أن هؤلاء الأتباع غير مُقَدِّرِينَ الحقائق ، وغير مخلصى النصح والإرشاد .

فكرت التفكير السليم الذى يمكن أن تعرف به طبيعة سليمان هذا ، فقررت أن تُرسِلَ له بهدية ، فإن قبلها علمت أنه ملك من جَبَّارِى الدنيا ، وأنه يريد زخرف الحياة وزينتها ، ويريد خيرهم وما يملكون .

وقد رُوِى أنها قالت :

إنْ كان نبيًّا حقًّا لم تصادف هديتنا مكاناً فى قلبه ، ولم تَحُلْ بينه وبين تبليغ أمر ربه ، وإن لم يكن فسوف يفرح بهديتنا ويُعْرض عن قتالنا .

---

(١) سورة النمل ـ الآيات من ٢٩ ـ ٣١ .

(٢) سورة النمل ـ من الآية ٣٢ .

(٣) سورة النمل ـ من الآية ٣٣ .

فقالت لقومها :

﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (١) .

أرسلت هدية عظيمة . . هدية تليق بملكة غنية فائقة .

ودعت رجلاً من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو ، وضمَّتْ إليه رجالاً من قومها أصحاب رأى وعقل ، وقالت له :

انظر إلى الرجل إذا دخلت ، فإن نظر إليكَ نظرًا فيه غضب فاعلم أنه ملك ، فلا يَهُولَنَّكَ أَمْرُه ومنظره ، فأَنَا أَعَزُّ منه .

وإن رأيت الرَجل بشاشًا لطيفًا فَافْهَمْ أنه نبى ، فَتَفَهّمْ قوله ، ورُدَّ الجوابَ .

وقيل فى الهدية :

إنها خمسمائة غلام ، وخمسمائة جارية .

وكان من ضمن الهدية لَبِنَاتٌ من ذَهبٍ ، ولبنات من فضة ، وتاج مرصع بأغلى الجواهر . . ورد سليمان الهدية قائلا :

﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (٢)

وفكرت الملكة التفكير السليم ، وقررت أن تذهب إلى سليمان بعد أن تأكدت أنه إنسان نبى لا يريد مالاً ولا جاهاً وإنما هو رجل له منهج .

وبعد أن أمر سليمان أن يأتوه بعرشها ، وأن يغيروا شيئاً من زينته قال :

وقال للملأ : ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٣)

---

(١) سورة النمل ـ الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) سورة النمل ـ الآيتان : ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) سورة النمل ـ من الآية ٤١ .

وأراد سليمان بهذا أن يختبر فطنتها وذكاءها . وقال لها سليمان :﴿ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ﴾ فردت بتحفظ وبفطنة ذكية : ﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾ :

لا يجوز للمرأة تولى الحكم (رئاسة الدولة) :

والله سبحانه وتعالى حين يعرض علينا نماذج من القصص القرآنى يريد أن يعطينا الحكمة والموعظة ، لا مثالاً يُحْتَذَى للاقتداء به فى تولى المرأة للحكم ، وإنما هى قصة من القصص القرآنى العظيم لتوضح لنا العبرة والعظة .

لأن أهم شروط الحاكم (رئيس الدولة) :

أن يكون مجتهداً ، عادلاً ، قادراً على ممارسة الحُكم بين الناس وسياستهم نحو تحقيق المجتمع الأفضل .

حتى لو اجتمعت هذه الشروط فى امراة لا يجوز أنْ يُسمح لها بتولى الحكم بين المسلمين ، لا لسبب سوى التحرز والاحتياط فى تحقيق العدالة بأسْلَم ما يكون من السُّبُل ، وأشد ما يكون من القدرة .

كما أن المرأة يطرأ عليها ما يشغلها عن القيام بأعباء الحكم ، ويؤثر على مزاجها وأعصابها مِن حَمْلٍ ، وولادة ، وحيض ، وأعباء بيت ؛ لذلك يكون الرجل حقيقة أقدر على إدارة دفة الحكم من المرأة . والله تعالى يقول :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾(١) .

المرأة والقضاء :

لا يجوز للمراة تولى القضاء ؛ لأن منصب القضاء يشترط الذكور أيضاً لنفس الأسباب التى ذكرناها ، وفى مقام الشهادة اعتبر الرجل مقابل امراتين ، وقد علل ذلك فى الآية الكريمة ﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾(٢) .

---

(١) سورة النساء ـ من الآية ٣٤ .

(٢) سورة البقرة ـ من الآية ٢٨٢ .

ففى الآية نص صريح الدلالة بعدم مساواة الرجل والمرأة فى الشهادة ، فكيف يسوى بينهما فى القضاء ؟ ومن ثم فقد حرم عليها توليها لمنصب القضاء .

ويقول المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق :

« يباح للمرأة إبداء الرأى فى الأمور العامة على وجه يتفق مع آداب الإسلام ، أما أن تتولى المرأة مناصب الولاية العامة فهذا أمر قد عارضته النصوص الإسلامية ، وإذا كان بعض الناس قد تأولوا هذه النصوص فإن جمهرة العلماء تُؤيد إعمال ظاهرها » .

وفى ذلك يقول الرسول ﷺ :

« لن يُفْلِحَ قومٌ ولَّوْا أَمْرَهُم امرأةً » (١) .

وقال الرسول ﷺ هذا الحديث حين أُبْلِغَ أنْ الفُرْسَ وَلَّوْا للرئاسة عليهم إحدى بنات كسرى بعد موته ، . . ويُعَدُّ هذا نهياً عن مُجاراة الفُرس فى إسناد شىء من أمور الولاية العامة إلى المرأة ؛ لذلك فإن فقهاء الشريعة الإسلامية يجمعون على أن المرأة لا تصلح لشئون القضاء لحديث الرسول ﷺ ، وتطبيقاً لقوله تعالى :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ .

خامساً: حديث التاريخ عن المرأة :

عرفنا لمحات من حديث القرآن الكريم عن المرأة ، ونعرض هنا لمحات من حديث التاريخ عن المرأة .

(أ) من الشخصيات اللاتى تَوَلَّيْنَ الحُكْم :

يحدثنا التاريخ عن نماذج طريفة من النساء اللواتى تولين الإدارة والحُكم ، ومن تلك الأمثلة :

١ـ ست الملك بنت العزيز بن المعز لدين الله الفاطمى :

التى تولت الوصاية على أخيها الحاكم ، وقد ساست الدولة الفاطمية فى مصر فى حِكْمَةٍ وحزم ، ثم قلدت أخاها الحاكم بأمر الله مقاليد الحُكم ، فلما طَغَى وأرْهَقَ

(١) رواه البخارى فى صحيحه ، وابن حنبل فى مسنده ، والنسائى فى سننه ، والترمذى فى جامعه .

الناس نصحته فلم ينتصح ، واشتد عليهم ، فعمدت إلى ابن الرواس بقتله وهى تردد كلمتها الشهيرة :

« ما قيمة حياة فرد إذا كان فى موته حياة أمة بأسرها » .

وبدأت تصلح ما أفسده أخوها وتدير أمر الدولة فى حنكة وحَزْم حتى كبر ولى العهد ابن اخيها ، فعهدت إليه بزمام الحكم .

٢ـ شجرة الدر زوجة الملك الصالح أيوب :

وقد تولت حكم مصر بعد أن مات زوجها الملك الصالح أيوب فى أثناء الحرب الصليبية الثانية ، ولم تعلن خبر موته حتى لا ينقسم الجند وتظهر الأطماع فى الحكم فينتصِر العدو ، بل ظلت تُصدر الأوامر التى اصْطَنَعَتْ عليها تَوْقِيعَ المَلِكِ ، ونَظَّمتِ الصفوف ، وأدارت شئون الدولة .

وأرسلت على عجل تستدعى «توران شاه » ابن الملك الذى كان وقت ذاك فى العراق . فلما حضر أعلنت وفاة الملك ، وتولى ابنه مقاليد الدولة .

وبفضل هذه البراعة فى الإدارة تحقق النصر النهائى للمسلمين على الملك لويس التاسع وحملته الصليبية ، ولم تمض فترة طويلة حتى قُتِلَ توران شاه ، فتربعت هى على عرش البلاد تحكم وتدير ، وتسوس أمور الرعية بإجماع الأمراء والوزراء .

وكان يُدْعَى لها على المنابر فى صلاة الجمعة والأعياد ويقولون :

« اللهم احفظ ذات الحجاب المَنِيع والسد الرفيع » .

وقد وصفها ابن العبرى فى كتابه تاريخ مختصر الدول بقوله :

« إنها كانت لا نظير لها فى النساء حُسْناً ، وفى الرجال حزماً » .

٣ـ كليوباترة ملكة مصر :

عُرفت بدهائها وقوة شخصيتها ، وقاومت أطماع القياصرة الرومانيين فى وطنها حتى حولت روما إلى ولاية تابعة لمصر بدلا من أن يحدث العكس ، وقد دافعت عن وطنها طوال حياتها .

وكان عهدها عهد حرية واستقلال ، غير أنه بانتهاء حياتها استطاع الرومان السيطرة على مملكتها .

ورغم ذلك يذكر المؤرخون أن كليوباترة ملكة مصر لم تكن سعيدة أيام حكمها ، وغرامها بأنطونيو وغرام أنطونيو لها .

فإن مُلكها وإمبراطوريتها العريضة ، ودَهَاءَها وجمالها ، وقلبها الخافق بكل حب وشبابها الضائع وسط سراب أحلامها العريضة ، وكرسى الإمبراطورية الذى كان يهتز من تحتها ، لم يقف أى منها حائلاً دون انتحارها بلدغة ثعبان قربته من صدرها لتكون أول ملكة تنتحر فى التاريخ .

وكليوباترة هذه هى كليوباترة السابعة ، فقد كانت هناك ستّ ملكات تحمل كل واحدة منهن اسم « كليوباترة » حكمن قبلها ، ومر على ذلك من الزمن عشرون قرناً .

وكليوباترة وإن كانت ملكة للإمبراطورية الفرعونية فإن دماءها كلها كانت إغريقية يونانية ، فلقد كانت آخر سلالة لبطليموس قائد الإسكندر الأكبر حيث حكم البطالسة ٣٠٠ سنة ، وكان حكمها نهاية لحكم البطالسة وللإغريق .

٤ـ الزبَّاء ملكة تدمر العربية :

هى الملكة العربية زينب بنت عمرو بن حيان ، ذات الذكاء والإدزاك والمهارة ، البارعة الجمال ، الطويلة القامة ، القوية البنية ، التى جمعت بين الأنوثة والشجاعة ، الجريئة التى لا تعرف الخوف ، ولا تتردد أمام الصعاب ، الفارسة التى لا يُشق لها غبار ، العظيمة الجَلَد ، الطموحُ إلى العُلا ، التى تُحسن قيادة الجيوش والقتال بالسيف والرمح .

والملكة زينب هذه كان يُطلق عليها الزبَّاء لغزارة شعر جبينها ، وسعة عينيها ، وكانت هذه العلامات من علامات الجمال يومئذ عند العرب .

وكانت الزباء أديبة ذات إباء وشمم .

لم ترث الزباء العرش عن آبائها ، رفعها إليه زوجها « أُذَيْنَة بن السَّمَيْدَع » الذى كان يتزعم القبائل الضاربة فى صحراء تدمر العربية .

فلما مات ارتفعت إلى مكانه ، وأمضت خمس سنوات ملكة تدمر العربية ، نهضت بأعباء بلدها وأدارت سياسته ، وقادت حروبه ، ونجحت فى توسيع قاعدته . لم تتوقف يوماً عن الحرب والفتح ، وأتيح لها أن تنزع من الرومان والفُرس أغلب المدن ، وشنت الغارة على مصر ، ونجحت فى توسيع قاعدة ملكها حتى امتدت إلى ما بين مجاهل إفريقيا وسهول آسيا الصغرى ، وتحولت دولتها إلى إمبراطورية مترامية الأطراف .

وأبرز أحداث حياة الزباء هو انتقامها من جُذَيْمَة بن الأبرص ملك الحيرة ، قاتل أبيها ، فقد أرسلت إليه تدعوه لاعتلاء عرش المملكة وضم مُلكه إلى مُلكها ، فأغراه النفوذ وحُب السيطرة على قبول عرضها ، فاعترض من بين رجاله « قُصَيْر بن سعد اللخمى » الذى كشف لِجُذَيْمَة عن المؤامرة ، ولكن جُذَيْمَةَ رفض رأيه ، ورحل إلى الزباء فى موكب حافل ، فاستقبلته واستضافته ، ثم أسرته وقضت عليه . .

بنت لنفسها نفقاً من قصرها إلى حصن فى داخل المدينة ، خشية انتقام خليفة جُذيمة وابن أخيه عمرو بن عدى منها على قتل خاله .

وذهب قصير اللخمى إليها بعد أن جدع أنفه يستدرجها ، وشَكَا لها عمرو بن عدى، فوثقت به ، وظل يتردد عليها ، وبينها وبين عمرو بن عدى ، ويحمل إليها التحف والطرائف .

استغل قصير اللخمى ثقتها به ، وجمع عمرو بن عدى وأصحابه فى موكب حافل ، ودخل المدينة ومعهم الجمال المحملة بالتحف والطرائف النادرة .

ووقفت الزباء فى شرفتها تنظر إلى الإبل ، وهو يصف ما جَلَبَه من طرائف وتُحف ، وكانت الإبل من فرط ما حملت تكاد تنوء به على حد قول الشاعر

مَا لِلْجِمَالِ مَشْيُهَا وئِيدَا أُجَنْدَلاً يَحْمِلْنَ أَمْ حَدِيدَا

ودخلت الإبلُ المدينة ، وأوقف قصير اللخمى عمرو بن عدى على باب نفق الزباء ، وانطلق رجاله ينهبون ويقتلون .

فلما أوشكت الزباء على الهَرَب كان عمرو بن عدى قد وقف لها بباب النفق ليقتلها

انتقاماً منها ، فامتصت خاتمها المسموم ، وقالت كلمتها المأثورة : (بِيَدِى لا بِيَدِ عَمْرو) .

٥ـ خاتون ملكة بُخَارَى:

تقع مدينة بُخَارَى فى إقليم الصغد ، أحد أقاليم بلاد ما وراء نهر سيحون وجيحون بخراسان .

وخاتون ملكة بخارى هى زوجة الملك بندون ملك بخارى ، الذى توفى عنها وترك من بعده ولدًا يدعى « طغشاد » وكان حدثاً ، فانفردت بشئون الملك أمه خاتون ، ودام حكمها ما يقرب من خمسين سنة .

وخاتون ليس اسمها ، بل صيغة من صيغ التوقير للسيدات ذوات المقام الرفيع ، أصلها فارسىٌّ أو تركى ، ومعنى خاتون (السيدة الوجيهة) .

لقد ذاع صيت هذه السيدة وإجلال الناس لها ، وكانت تغادر مقرها كل يوم بعد الشروق ، فتجلس فوق العرش ومن حولها رجال البلاط والأعيان ، وتقيم العدل بين الناس. وكان يقوم على حراستها فى الحضرة كل يوم مائتا شاب يتمنطقون بالذهب، ومعهم سيوفهم الذهبية كذلك ، وكانوا يُسْتَبْدَلُ بهم غَيْرُهُمْ كل يوم .

وعلى هذا الوضع كانت تتيح لكل قبيلة أن تشارك فى أداء واجب حراستها أربع مرات فى السنة . وبهذه السيدة انتهى الحكم الفعلى لأول أسرة حاكمة فى بخارى .

وقد احتفظ ابنها « طغشاد » باستقلاله لمدة ثلاثين سنة لاعتناقه الإسلام ، وقد ثبت المسلمون « ابن طغشاد » ـ وكان اسمه قتيبة ـ على العرش من بعده تكريماً لأبيه ، ولكن الابن قتيبة هذا لم يخلص للإسلام والمسلمين ، كما كان أبوه مخلصاً ، فكان يتظاهر بالإسلام ويخفى ممارسة طقوس المجوس ، فَقُتِلَ مُتَّهَماً بالزندقة .

(ب) من الشخصيات الزاهدة :

١ـ رابعة العدوية :

استمع إليها سيدها وهى تناجى الله عز وجل فى جوف الليل قائلة : « ربى ، إنك تعلم أن أشد ما أَتُوقُ إليه هو عبادتك وتأدية مَالَكَ من حقوق ، ولكنى أسيرة لا أملك

حريتى الشخصية ، فلا سبيل لتحقيق هذه الغاية فلتعذرنى يا إلهى . » .

فأعطاها سيدها حريتها ، وتركت بيته شاكرة .

هداها الله عز وجل إلى نوره ، فحفظت القرآن الكريم ، وجالَسَتِ العُلَماء والحُكَماء ، جلست إلى أبى سفيان الثورى ، وأبى الحسن البصرى ، والصوفى شقيق البَلْخِى ، وعاشت زاهدة فى نعيم الدنيا الذى سعى إليها فرفضته ، وكان قولها دائمًا : « مالى بالدنيا حاجة » .

وحاول أبو الحسن البصرى أن يعطيها مالا فرفضت قائلة :

« ألا تعلم أن الله يرزق عباده الذين هم عنه لاهون ، فما بالك بمن يكون فى سُوَيْدَاء قلبة محبةٌ يقضى دونها الوطر لفاطر السموات والأرض عز وجل » .

سألها سائل : هل تحبين الله كثيرًا ؟ فقالت : بلا ريب .

فقال لها : ألا تعدِّين الشيطان عدًّوا لكِ ؟

أجابت : إنَّ محبة الله قد ملأت أرجاء قلبى فليس فيه متسع إلى القلق والاضطراب من عداوة الشيطان .

ولم تكن كما قيل عنها لَعُوبًا تغترف اللذات وتسهر الليل فى اللهو واللعب ، لقد كانت تصلى الليل كله ، ولم تترك لها الحياة وقتاً للزواج ، فعاشت عذراء ؛ لأنها وجدت أنها لا تستطيع القيام بحقوق الزوج بعد أن تغلبت روحانيتها على حياتها الدنيوية .

طلبها أبو الحسن البصرى للزواج بعد وفاة زوجته فاعتذرت قائلة :

إنما يتزوج من يملك إرادته بنفسه ، أما أنا فليس لى إرادة ، إنْ أَنَا إلاَّ عبدة المَوْلى عز وجل .

فسألها أبو الحسن البصرى : وكيف بلغت هذه الدرجة من الزهد والصلاح ؟

قالت رابعة : بمحو النفس وفنائها تمام الفناء .

ومن روائعها أن سائلا سألها : إنى قد أكثرتُ الذنوبَ والمعاصى ، فلو تبتُ ، هل يتوب الله علىَّ ؟ فأجابت : « لا بل لو تابَ عليك لتُبْتَ « تشير بذلك إلى قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(١) .

بدأت رابعة العدوية أولا فى صورة الزاهدة العابدة الناسكة الخائفة من عذاب النار، الباكية بما يحتاج فعله إلى الاستغفار ، الراجية ما أعد من نعيم للأبرار ، ولكنها ما لبثت أن استحالت إلى مُحِبَّة عاشقة ، وهائمة تائقة إلى حُب الله ، والشوق إلى الله ، والأنس بالله ، لا خوفاً من ناره وعذابه ، ولا طمعاً فى جنته وثوابه ، بل ابتغاء لمشاهدة حقيقته العلية ، واجتلاء لطلعة جمال ذاته القدسية .

وكانت تناجى ربها قائلة : « إلهى ، لا تَجْعَلْ فى قلبى مكاناً لغير حُبِّكَ ، إلهى، إنْ كُنْتُ أعبدك رهبة وخوفاً من النار فاحرقنى بها ، وإن كُنت أعبدك رغبة فى الجنة فاحرمنى منها ، أَمَّا إذا كنت أعبدك يا إلهى من أجل محبتك فلا تحرمنى يا إلهى من جَمَالِكَ الأزلى » .

ومن خير ما وُصف به حال رابعة ماورد فى كتاب « شرح حال الأولياء » لعز الدين ابن عبد السلام بن غانم المقدسى من أنه قِيلَ لرابعة : كيف رأيتِ المحبة ؟ فقالت : ليس للمحب وحبيبه بين ، وإنما هو نطقٌ عن شَوْق ، ووَصْفٌ عن ذَوْق ، فمن ذَاقَ عَرَفَ ، ومن وصَفَ فما اتصف ، وكيف تصف شيئاً أنت فى حضرته غائب ، وبوجوده ذائب ، وبشهوده ذاهب ، وبصحوك منه سكران ، وبفراغك له ملآن ، وبسرورك له وَلْهَان ، فما ثَمَّ إلاَّ دهشة دائمة ، وحيرة لازمة ، وقلوب هائمة ، وأسرار كاتمة ، وأجساد من السقم غير سالمة ، والمحبة بدولتها الصارمة فى القلوب حاكمة» .

اشتاقت إلى الله فأقبلت عليه ، وأحبت الله فطلبت القُرب منه ، وعاينت جمال الله فأنست به ، وفرغت قلبها لله فلم تشتغل بما هو دونه .

وها هى ذى رابعة تتحدث إلى محبوبها عن حبها فتقول :

أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ حب الهوى ... وحُبًّا لأنك أَهْلٌ لَذاكَا

فأَمَّاالذى هَو حُبُّ الهَوَى ... فَشُغْلِى بذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَا

---

(١) سورة التوبة ـ من الآية ١١٨ .

وأما الذى أنت أهــلٌ لـــه فَكَشْفُكَ لى الحُجْبَ حتى أَراكَا
فلا الحمدُ فى ذَا ولا ذاكَ لى ولَكِنْ لَكَ الحَمْــدُ فى ذَا وذَاكَا

ويقول الإمام الغزالى :

لعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها ، وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، وبحبه لماهو أهْلٌ له : الحب لجماله وجلاله الذى انكشف لها ، وهو أعلى الحُبَّيْنِ وأقواهما . ولذة مطالعة جمال الربوبية هى التى عبر عنها رسول الله ﷺ ، حيث قال حاكياً عن ربه تعالى :

« أعددتُ لعبادى الصَّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَر » .

وسألها سفيان الثورى عن حقيقة إيمانها ، فأجابته بقولها :

« ما عبدتُه خوفاً من ناره ولا حُبًّا لِجَنَّتِهِ فأكون كالأجير السوء ، بل عبدتُه حُبًّا له وشوقاً إليه » .

ومعنى هذا كله هو أن رابعة لم تكن ترهب النار ولا ترغب فى الجنة ، ولكنها كانت تريد رب الجنة ، وكانت تريد أن ينكشف عن عين قلبها كل حجاب ، وأن ينفتح لهامن دون محبوبها كل باب حتى لا تأنس إلا به ، ولا تسكن إلا معه .

وهكذا نرى أن حب الله لذاته قد استوعب رابعة استيعابًا تامًّا ، فعندما سُئلت عن كيفية حبها للرسول عليه الصلاة والسلام أجابت بقولها :

« والله أحبه حبًّا شديدًا ، ولكنَّ حُبَّ الخَالقِ شَغَلَنِى عن حُب المخلوقين » .

وتوفيت رابعة العدوية رحمها الله سنة ١٨٥ هجرية . بعد أن عمرت ثمانين عاماً ، ودفنت بالبصرة على أرجح الأقوال .

٢ ـ نفيسة العلم :

• هى بنت حسن الأنور ، ابن زيد الأبلج ، ابن الإمام الحسن بن علىٍّ كرم الله وجهه ، سبط رسول الله ﷺ وحفيده .

ولدت بمكة سنة ١٤٥ من الهجرة النبوية الشريفة ونشأتْ بالمدينة المنورة حيث كان والدها والى المدينة من قِبَلِ الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور .

عاشت حياتها كلها فى المدرسة المحمدية ، وحفظت القرآن ، ودرست علومه وتفاسيره ، فكانت تذهب إلى مسجد رسول الله ﷺ تستمع إلى الحديث والفقه من كبار العلماء والفقهاء .

التقت بالإمام مالك رضى الله عنه ، وقرأت له ، وأخذت عنه ، وناقشت معه الكثير من القضايا الدينية ، وألمت بكتاب الله ، واستجلت غوامضه ، ومن هنا سُمِّيَتْ نفيسة العلم .

عاصرت الإمام الشافعى رضى الله عنه وكان يأخذ عنها وينزل على رأيها فى كثير من الأمور ، وكانت رضى الله عنها مستجابة الدعاء .

وروى أن الإمام الشافعى رضى الله عنه كان إذا مَرِضَ يرسلُ إليها رسولاً مِن قِبَلِهِ فيقرئها السلام ويطلب منها الدعاء بالشفاء ، فتدعو له ، فلا يرجع رسوله إلا وقد عُفِيَ من مرضه بإذن الله ، ولما مَرِض مرضه الأخير أرسل اليها كعادته ، فقالت لرسوله : مَتَّعَهَ الله بالنظر إلى وجهه الكريم .

كانت فقيهة متدينة ، تصوم الدهر إلا قليلا ، وتقوم الليل كله أو تنقص منه قليلاً أو تزيد عليه قليلاً ، وترتل القرآن ترتيلا .

عُرفت بتقواها وورعها وعبادتها ، وكانت لا تُرَى إلا صائمة قائمة ، عابدة ناسكة .

قالت زينب بنت يحيى : خدمتُ عمتى نفيسة أربعين سنة ، فما رأيتُها نامت بليلٍ ولا أفطرت بنهار إلا العيدين والتشريق .

وقالت لها بنت أخيها : أما ترفقين بنفسك ؟ قالت :

« كيف أرفق بنفسى وأنا فى عَقَبَاتٍ لا يقطعها إلا الفائزون » .

وصلت إلى مصر بصحبة والدها حسن الأنور ، وزوجها إسحاق المؤتمن ، فى

رمضان سنة ١٩٣ من الهجرة . ومن أقوالها : « إن مَنِ استقام مع الله استقام الكونُ كله له» .

وبقيت بمصر حتى لقيت ربها وهى تقرأ قوله تعالى :

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(١) .

٣ ـ الشهيدة أم ورقة بنت عبد الله :

أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث بن عويمر بن نوفل الأنصارية المعروفة بأم ورقة بنت نوفل ، حيث نُسبت إلى جدها الأعلى .

صحابية جليلة ، كان الرسول ﷺ يزورها فى بعض الأحايين والأوقات .

كانت قارئة تجمع القرآن الكريم وتداوم على قراءته ومُدَارَسَتِهِ ، حتى وصلت إلى إمامة أهل بيتها ، حيث أمرها النبى ﷺ أن تؤم أهل دارها ، فاستاذنت الرسول فى أن تتخذ فى دارها مؤذناً ، فأذِنَ لها .

ولما غزا رسول الله ﷺ بدرًا قالت له :

« ائْذَنْ لى أن أَخْرُجَ أداوى جرحاكم ، وأمرض مرضاكم ، لعل الله يهدى لى الشهادة» .

فقال لها رسول الله ﷺ :

« إن الله تعالى يهديك الشهادة ، وقَرِّى فى بيتك ، فإنَّكِ شهيدة » .

واستقبلت أم ورقة نبوءة رسول الله ﷺ بالشهادة بنفس مطمئنة وسعادة كاملة ، لحرصها على الجهاد فى سبيل الله ونيل ثوابه .

وتحققت بشرى نبوءة رسول الله ﷺ بالشهادة :

ففى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه غَمَّهَا (خنقها) غلام وجارية لها فقتلاها، فبلغ ذلك أمير المؤمنين الفاروق عمر ، فقام فى الناس وقال :

---

(١) سورة الأنعام ـ الآية ١٢٧ .

إن أم ورقة غمها غلامها وجاريتها فقتلاها وهربا ، وأمر بطلبهما ، فَأُتِيَ بهما ، فَصُلِبَا ، فكانا أول ـ مصلوبين فى المدينة ، عملاً بقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾(١) .

وقال عمر رضى الله عنه :

صدق رسول الله ﷺ حيث كان يقول :

« انطلقوا بنا نزور الشهيدة » .

رحم الله الشهيدة أم ورقة ، ورضى الله عنها وأرضاها .

(جـ) من الشاعرات المسلمات :

الخنساء البطلة الشاعرة أم الأبطال :

الخنساء بنت عمرو بن الحارث بن الشريد ، كان اسمها فى مطلع الصبا « تُمَاضَر » لبياض لونها ، وكانت العرب تطلق هذا الاسم على المرأة ذات البشرة البيضاء ، ثم غلب عليها اسم الخنساء ، مؤنث أخنس .

وُلدت قبل ظهور الإسلام ، من أعز بيوتات العرب ، فأبوها عمرو بن الحارث زعيم قبيلة بنى سليم وشيخها ، إذ كانت له رياسة بنى سليم جميعاً . وكان أحد الرجالات السبعة الذين أوفدهم النعمان بن المنذر ملك الحيرة إلى كسرى ملك الفرس ليعتز أمامه بهم وبمن وراءهم من العرب جميعاً ، ويدل على ما للعرب من رجاحة العقول، وكرم الاخلاق ، وبُعْد الهِمَمِ ، وفصاحة اللسان .

---

(١) سورة المائدة ـ الآيتان : ٣٣، ٣٤ .

ومنازل قبيلة بنى سليم كانت مترامية الأطراف بين شمال الحجاز ونجد ، وحدودها قريبة من مكة والمدينة ، فكانوا على صلات قوية بأشراف هاتين المدينتين .

وكان فى نساء بنى سليم نجابة ، كما كان فى رجالهم كثرة وبأس .

وحسبنا من ذلك أنه كانت للنبى ﷺ جدات منهن ، وكان صلوات الله وسلامه عليه يقول عند اشتداد غزوة حنين أنا ابن العواتك من سليم ؛ لأن ثلاثاً من جداته كانت كل منهن تسمى عاتكة فسماهن العواتك . والعاتكة هى الحرة العزيزة المكرمة .

وكانت هذه القرابة بين النبى ﷺ وبنى سليم أحد الأسباب التى حفزتهم إلى الاهتمام بدعوته ﷺ .

وكان والد الخنساء يعتز بابنيه معاوية وصخر ، وبابنته الخنساء ، وقد رباهم على الاعتزاز بفضائل السيادة التى كانت عفة وكرماً وعطفاً وإنصافاً من أنفسهم ومن الآخرين .

تزوجت الخنساء فى بنى عُمومتها : تزوجها أولا رواحة بن عبد العزيز السلمى ، فلما مات تزوجها عبد الله بن عبد العزى ، فولدت ابنه عبد الله ، وكُنيته أبو شجرة ، وكان زوجها الثالث والأخير مرداس بن أبى عامر ، وكان أولاده منها : العباس ، ويزيد ، وحرن ، وعمرو ، وسراخة ، وابنتها عمرة ، وكلهم شعراء ، وسادة ، وفرسان . وقد غمرتهم أمهم بمحبتها ، وأسبغت عليهم المزيد من حنانها وعطفها . وكان أشهر أولادها شعرًا العباس بن مرداس ، وابنتها عمرة ، وإن لم تبلغ شهرتها مبلغ أمها العظيمة .

وتوفى أبوها وزوجها ، ثم فُجِعَتْ بقتل أخيها معاوية ، حيث كانت تحبه أشد الحب ، وزادت عليها الفجيعة بقتل أخيها صخر ، فانقلب شعرها إلى مرثيات مُبكية مما لا نظير له فى الشعر العربى والعالمى كله .

اضطرب كيانها ، واهتزت نفسها ، وتقوس ظهرها ، وانطفأ نور جمالها ، وكان من شعرها :

يُذَكِّرنِى طُلوعُ الشمسِ صَخْرًا وَأَذْكُرُه لِكُلِّ غروبِ شَمـــسِ
ولــولا كَثْرَةُ الباكِـــين حــولى على مَوْتَاهُمُ لَقَتَلتُ نَفْســـى
وما يبـكون مِثْلَ أَخِى ولكــنْ أُعَزِّى النَّفْسَ عنــه بالتَّأَسِّـى

وبعد أن هاجر النبى ﷺ إلى المدينة ، وهى أقرب إلى ديار بنى سليم ، كانت الخنساء وابنها العباس بن مرداس من أعلام وفد بنى سليم إلى النبى ﷺ ، وقد أكرمها النبى ﷺ ، وخصَّها بمزيد من عطفه ورضائه ، فسمع شعرها الباكى ، واستزادها من إنشاده ، وهو صلوات الله وسلامه عليه يُدَلِّلُهَا : هِيهِ يا خُنَاسُ .

وقد أكبر النبى ﷺ فرط وفائها لأهلها ، وقَدَّرَ شيخوختها وجلالها ، وعسير تغيير عاداتها فى حدادها ، لعمق حسرتها .

وبرغم ما أصابها من شيخوخة طاعنة ، وفواجع طاحنة ، وكَفٍّ للبصر فإنها ـ عندما تنادَى المسلمون للخروج فى موقعة القادسية لحرب الفُرس ـ شجعت كل ما بقى من أبنائها ، وهم أربعة ، ودفعتهم فى حماس ليموتوا شهداء فى سبيل الله ، وأَبَتْ إلاَّ أن تخرج بنفسها معهم لتزيد عزمهم وحماسهم على القتال ، فلما علمت أن أبناءها الأربعة قد استشهدوا جميعًا سألت كيف قُتِلُوا ؟ فلما علمت أنهم قُتِلُوا وهم يهاجمون العدو مندفعين بصدورهم ملأتها الفرحة ، وأحست بالفخر ، وقالت كلمتها الخالدة :

« الحمد لله الذى شَرَّفَنى بقتلهم ، وأرجو أن يَجْمَعَنِى الله بهم فى مُسْتَقَرِّ رَحْمَتِه » .

تلك هى الخنساء الشاعرة المسلمة أم الشهداء .

أمهات خالدات :

١ ـ السيدة هاجر أم إسماعيل :

هاجر أم اسماعيل ، أم العرب العدنانية جميعًا ، بما فيهم قريش وبنو هاشم . وقصة هاجر أقدم من تاريخ الإسلام ، ترويها التوراة بتفصيل ، ويركز القرآن الكريم منها على ما هو جوهر الموقف ، ومناط العظة والاعتبار .

وهاجر هى أَمَةٌ مصرية مستضعفة للسيدة سارة ، زوجة سيدنا إبراهيم الخليل عليه

السلام ، وكانت السيدة سارة عاقرًا ، فبدا لها فى لحظة يأس أن تهب زوجها جاريتها المصرية الشابة ، ولعل العقم منه .

وحملتْ هَاجَر ، فضاعفت الغيرة إحساس السيدة سارة بالعقم ، وشكت إلى زوجها ما يبدو على هاجر من زهو ، فرد عليها ملاطفًا :

« هى جاريتك تصنعين بها ما تشائين » . فأرضاها رده ، وحملها على التجلد والصبر والمداراة ، إلى أن وضعت هاجر وليدها ، فنفد صبر السيدة سارة ، ورفضت أن يؤويها وجاريتها سقفُ بيتٍ واحد .

ثم مازالت بزوجها حتى خرج ذات يوم من أرض كنعان متجهًا إلى الجنوب تتبعه هاجر مستسلمة لما يُرَادُ بها ، راضية من دنياها بوليدها إسماعيل .

وانتهى بهم المسير عند مكة ، وهى حين ذاك مقفرة خاوية ، إلا من نفر من البدو الرُّحَّل يضربون خيامهم بين أطلالها فى تنقلهم بالصحراء التماسًا لماءٍ لسُقياهم ، ومرعًى لإبلهم .

وعند ربوة هناك إلى جوار الأطلال من البيت العتيق ترك إبراهيمُ هاجَرَ وولدَها ، بعد أن بنى لهما عريشًا يأويهما وترك لها جرابًا فيه تمر ، وسقاءً فيه ماء ، ثم هَمَّ بالرجوع من حيث جاء .

سألته هاجر وهى فى ذهول :

أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى المُوحِش المُقْفِر يا إبراهيم ؟

وصرف إبراهيم الخليل عليه السلام سَمْعَهُ عنها ، كأنه خَشِىَ أن تخذله عاطفة الأبوة ، فكررت عليه القول : آلله أَمَرَكَ بهذا ؟

أجاب إبراهيم دون أن يلتفت إليهم : أَجَلْ .

فأجابت الأم فى استسلام ويقين وإيمان صادق : « إذَنْ فالله لا يُضَيِّعُنَا » .

انطلق إبراهيم الخليل فى سبيله ، وَتَراهُ هاجَرُ وقد رفع وجهه إلى السماء متضرعًا ، داعيًا ربه فى ابتهال :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾[1].

واستأنف إبراهيم عليه السلام سَيْرَهُ عائدًا من حيث جاء ، إلى بيته وزوجِه السيدة سارة . . . عطفت هاجر على وليدها تستمد منه زادها من الأنس والعزاء ، وأخذت تملأ عينيها وقلبها من طفلها الحبيب ، وتشاغلت به عن موقفها الصعب فى ذلك الوادى الموحش القَفْر ، حتى نفدت مئونتها الضئيلة ، وبدأ يرهق صغيرها الغالى .

هبت مذعورة تبحث فى البرية المقفرة عن قطرة ماء ، فلما أعياها أن تجد هذه القطرة نظرت حولها : أىّ الجبال أدنى من الأرض ؟ فإذا جبل « الصفا » قريب منها ، فقامت عليه واستقبلت الوادى تنظر : هل من إنسان ؟ وتسمعت : هل من صوت ؟ فلما لم تجد إلا الوحشة والصمت الرهيب، سعت إلى جبل « المروة » مهرولة سَعْىَ المُجْهَدِ ، تحاول أن تجد أى أثر للحياة ، ولا أثر .

وكررت السعى مُهَرْوِلَةً بين الصفا والمروة شوطًا بعد شوط ، حتى أنهكها الإجهاد ، فتهاوت على الرمال وغطت وجهها حتى لا تنظر نهاية المشهد لطفل يموت وهو يلهثُ من الظمأ .

ثم كانت إرادة الله ورحمته وعنايته وفضله . فما إن عادت إلى ولدها بعين دامعة وقلب منكسر لتنظر ما حَلَّ به ، وهى تظن أنه فارق الحياة ـ حتى رأت بين قدميه اللتين يفحص بهما الأرض ماءً ينبع صافيا فهرعت هاجر نحوه ترتوى وتسقى ولدها ودبت الحياة فى الوادى الأجرد : ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ ﴾[2].

ومرت قافلة من جُرْهم مقبلة من طريق « كداء » فى طريقها إلى الشام ، فنزلوا فى أسفل مكة فلمحوا طيرًا ، فقالوا : إن هذا الطير لا يحوم إلا على ماء ، وعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء .

---

(١) سورة إبراهيم ـ الآية ٣٧ .

(٢) سورة الأنبياء ـ من الآية ٣٠ .

وأرسلوا دليلهم فعاد إليهم يحدثهم عَمَّـا رأى ، وتبعوه حتى أشرف بهم على الماء فإذا هناك هاجر وولدها ، فقالوا لها :

(إنْ شئتِ أَقَمْنَا مَعك فآنسناكِ ، والماء ماؤك) فَأَذِنَتْ لهم فنزلوا إلى جوارها .

وأقامت هاجر مع ابنها في هذا المكان آمِنَةً مطمئنة ، يشب إسماعيل في جرهم فتعرب وأصهر إليهم ، فكانت العرب العدنانية من ولده .

وهكذا بوركت أمومة تلك الأمَة التى تُرِكَتْ مع ولدها بالعراء .

وتقدس مسعاها بين الصفا والمروة ، فصار السعى بين الصفا والمروة شعيرة من شعائر فريضة الحج كل عام . وجعل الله تعالى ذلك المكان مَثابةً للناس وأَمْنًا . وذلك الوليد الذى بدأ في ذلك القفر الموحش بوادٍ غير زرع لم يكد يبلغ رشده حتى تَلَقَّى مع أبيه إبراهيم رسالةً من الله وعهدًا قال تعالى :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1].

(١) سورة البقرة ـ الآيات من ١٢٥ ـ ١٢٩ .

واستجاب الله الدعاء ، ومن ذرية إسماعيل ابن هاجر المصرية اصطفى الله سبحانه وتعالى خاتم الأنبياء « محمد بن عبد الله » .

فبعث فى الأميين : ﴿ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١).

ومن أُمومة هاجر بدأنا نعرف تاريخ مكة الدينى .

وكلما أَهَلَّ موسم الحج سَعَى المسلمون بين الصفا والمروة حيث سعت هاجر ، مهرولين مثلها ، سَعْىَ المُجْهَد .

ويتجدد الاحتفال كل عام فى موعده الذى لا يتخلف مع فريضة الحج فى عيدنا الأكبر ونحن نسعى بين الصفا والمروة .

فعلينا معشر المسلمين والمسلمات أن نجعل من هذا العيد الأكبر عيدًا للأمومة .

ويجب علينا ونحن نحج كل عام إلى ذلك المكان المبارك الذى شهد أُمنا هاجر تكابد هموم أمومتها أن ندرك مغزى شعيرة السعى بين الصفا والمروة ونحن نهرول فى الأشواط السبعة فى مناسك الحج ، وأننا بهذا السعى نُحيى ذكرى أمومة مباركة خالدة . وبذلك تكون الأمومة فى عيدنا عبادة ودنيا .

قال النبى ﷺ يومًا لأصحابه :

« إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرًا فإن لهم ذمة ورحمًا » .

ذمة : لأنهم أهل كتاب .

ورحمًا : لأن السيدة هاجر أُم إسماعيل مصرية . كما أن مريم « مارية القبطية » التى أهداها المقوقس للرسول ﷺ كانت مصرية (٢).

٢ـ السيدة آمنة بنت وهب (أم مصطفى) :

حين وَلِىَ عبدُ المطلب الهاشمى شرفَ السقاية لوفود الحجيج إلى البيت العتيق ،

---

(١) سورة الجمعة ـ من الآية الثانية .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام ـ ومقالات للدكتورة بنت الشاطىء .

شغله هم التفكير فيما يتجشمون فى الموسم من مشقة وعناء لشُحِّ الماء فى وادى مكة ، وذكر بئر زمزم التى أنقذت جده إسماعيل بن إبراهيم من الهلاك ، وجذبت إلى مكة القوافل فعمرت بعد خراب . وقد طمرتْ زمزمَ رمالُ الزمن ، وصار العثور على موضع بئر زمزم شغله الشاغل ليل نهار ، حتى رأى فى منامه بُشْرى تحقيق أمله .

توجَّه ذات صباح هو وابنه الوحيد « الحارث » نحو مكان بين وَثَنَىْ أُسافَ ونَائِلَة ، فلما هم بالحفر تصدت له قريش تأبى عليه أن يحفر بين وثَنَيْهَا ، وتَعْجَبُ لجُرأته وليس له غير ولد واحد .

يومها نَذَرَ عبد المطلب لئن وُلِدَ له عشرة أبناء ثم بلغوا حتى يمنعوه لَيَنْحَرَنَّ أحدهم عند الكعبة قربانًا لله .

ومرت السنون واكتمل بنوه عشرة ، وكان عبدالله أصغرهم ،وانتظر عبد المطلب حتى إذا بلغوا دعاهم إلى الوفاء بنذره ، وخرج بهم إلى الكعبة ، وقد حمل كل منهم قِدْحًا عليه اسمه وقدموها إلى صاحب القداح .

وضرب صاحب القداح فخرج القدْحُ على « عبدالله » .

ولم يملك الشيخ عبد المطلب التراجع ، بل أخذ بيد فتاه الغالى يريد الوفاء بنذره ، ولم يكد يضع الشفرة على رقبته حتى تكاثرت عليه قريش ومنعته من ذلك حتى لا يسن تقليدًا بذبح الأبناء .

وقرروا أن يستشيروا فى أمره عَرَّافَةً لهم بخيبر ، فأشارت عليهم أن يرجعوا إلى الكعبة فيضربوا القِداح على عبدالله وعلى عَشْرةٍ من الإبل ، فإن خرج القِدْحُ عليه زادوا عشرًا، ثم عشرًا ، حتى يرضى ربهم ، وإن خرجت القداح على الإبل نحروها عنه .

وعادوا ففعلوا ذلك ، فمازالوا يزيدون عشرًا بعد عشر والقِدْحُ تخرج على عبدالله حتى بلغت الإبل مائة ، وخرج القِدْح لأول مرة على الإبل ، وعندئذ هتف الجميع من قريش : « قد رَضِىَ رَبُّكَ يا عَبْدَ المطلب » .

وحتى يطمئن قلب عبد المطلب كرر التجربة ثلاث مرات والقدح يخرج على الإبل فَنُحِرَت الإبل المائة وتُركت حول الكعبة فداءً لعبد الله ، وهى أغلى فدية عرفها العرب .

ومفتدى اليوم حفيد أصيل للذبيح الأول إسماعيل عليه السلام ، الذى افتداه الله بكبش عظيم .

انصرف عبدالله بن عبد المطلب مع أبيه عبد المطلب وتوجها إلى سيد بنى زهرة نسبًا وشرفًا ـ وهب بن عبد مناف بن زهرة ، فخطب ابنته آمنة عروسًا لعبد الله الذبيح المُفْتَدى ، وبعدها كان الاحتفال المشهود بالعُرس .

أَمَّا العروس فقد تفتح صباها فى أكرم بيت وأطيب منبت ، فأبوها : سيد بنى زهرة ، وهب بن عبد مناف بن كلاب القرشى المضرى ، وأمها : برة بنت عبد العزى بن عثمان حفيد قصى ، وجدتها لأبيها : عاتكة الهلالية السلمية ، إحدى العواتك اللاتى اعتز المصطفى بأمومتهن فقال :

« أنا ابنُ العَواتِك من سليم » .

وجدتها لأمها : أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى .

سلالة قرشية عريقة أصيلة هيأتها لأمومتها الخالدة .

ووراثات كريمة نقية أهدتها إلى ولدها ، فجمعت له عز المَنَافِيَيْنِ :

جد أبيه : عبد مناف بن قصى بن كلاب .

وجدها : عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، فهى تتصل بالرسول فى الجد الخامس من جهة أبيه ، وفى ذلك يقول النبى ﷺ :

« لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مُصَفًّى مهذبًا لا تنشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما » .

تلك هى العروس آمنة بنت وهب ، التى لم تدع لغيرها من النساء اللاتى عَرَضْنَ أنفسهن على « عبدالله بن عبد المطلب » يوم فدائه مأربًا . وفيهنَّ أخت ورقة بن نوفل ، وفاطمة بنت مر كاهنة خثعم .

سيدة من صميم البيت القرشى الذى استأثر بشرف السيادة فى أُمِّ القرى ، وانفرد بالوظائف الدينية الكبرى فى مكة ، موئل حج العرب ، ومهوى أفئدتهم .

ويحدثنا رسول الله ﷺ عن مولده فيقول :

« إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشًا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم ، فأنا خِيَارٌ مِنْ خِيَارٍ من خيار » .

وقد رأت آمنة فى منامها ليلة عرسها كأن شعاعًا من النور يشع من كيانها اللطيف فيضىء الدنيا من حولها ، وسمعت هاتفًا يبشرها بأعظم ولد .

وحين ودع عبدالله آمنة فى رحلته إلى الشام ، ولم يمضِ على عرسها إلاَّ أقل من شهرين ، لم يدرِ العروسان أنه فراق لالقاء بعده ، وأنها رحلة بغير عودة ، ففى طريق عودته من الشام أَلَمَّتْ بعبد الله وعكة طارئة ، فتخلف عن قافلة قريش فى دار أخواله بيثرب حتى يسترد صحته وعافيته ، فلم يلبث الموت أن اغتاله ، ودُفِنَ هناك فى ثَرَى يثرب .

لبِست مكة كلها ثوب الحداد على فتاها ، وترملت آمنة بنت وهب زهرة قريش ومازال فى يديها خضاب العُرس ، وحزنت الأرملة العروس حزنًا ساحقًا على زوجها ، ورفضت أن تقبل فى عبد الله أى عزاء .

فِيمَ كان فداؤه إذن والموت منه وشيك ؟

وفيمَ كان العرس المشهود ويد القدر تحفر له لحده فى يثرب ؟

وبعد أن أدركها الإعياء أغفت مجهدة العيون ، ثم ما لبثت أن صحت من غفوتها وقد أحست خفقة حياة جديدة فى أعماقها ، فأشرق وجهها بنور الإلهام ، وكأنها عرفت السر الذى كان .

إن عبدالله لم يُفْتَدَ من الموت عبثًا . كانت مهلة ما بين فدائه من الذبح وموته لِيُودِعَ آمنة هذا الجنين الذى تحس نبض حياته فى رَحِمها . ومن تلك اللحظة الحاسمة أنزل الله سكينته عليها ، فطوت أحزانها وأشجانها ، وبدأت تفكر فى ذلك الجنين الغالى .

مضت فترة الحمل والجزيرة العربية تموج بإرهاصات عن نبى منتظر حان مبعثه وتقارب زمانه ، يتحدث بها الأحبار من يهود يثرب . والرهبان من نصارى الشام ونجران ، والكهان من العرب ، والحنفاء من قريش .

وعلى مدى فترة الحَمْل لم تتخَلّ عن آمنة هواتف البُشْرَى فيما سيكون لجنينها من شأن عظيم ، فكان ذلك مما يؤنس وحشتها ، ويهون عليها تجربة الحمل الأول .

وحتى إذا أوشك حمل آمنة بنت وهب أن يتم أجله رُوِّعَتْ كما روعت مكة كلها بغزو أبرهة طاغية الأحباش بجيش لا طاقة للعرب به لأم القرى .

وقد رأى عبد المطلب بن هاشم أن يتحرز بأهل مكة فى شعف الجبال والشعاب ، وعز على آمنة أن تضع وليدها بعيدًا عن الحرم المكى ، وفى غير دار أبيه عبدالله ، ولكنها ما تخلت عن إيمانها بأن الله مانعٌ بيته ، وقررت أَلاَّ تبرح مكانها فى جوار الحَرَم إلى أن يقضى الله أمره .

ثم جاءتها البشرى بأن الله سلط نقمته على أصحاب الفيل ، فانتشر فيهم وباءٌ مُهْلِكٌ حيث أَرْسَلَ عليهم طيرًا أبابيل رمتهم بحجارة من سجيل فتركتهم كعصف مأكول .

وأقبلت قريش على كعبتها المقدسة تطوف بها حامدة شاكرة ، وآمنة فى بيت عبدالله تحس بالسكينة والغِبْطَة أن استجاب الله لدعائها ، فلن تضع وليدها بعيدًا عن حَرَمِه الأمين .

وبعد يوم الفيل بخمسين يومًا ، وفى يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، الموافق ٢٠ من أغسطس سنة ٥٧٠م ، وما كاد نور الفجر يهل على الأفق ، حتى كانت آمنة قد وضعت وليدها على يد قابلة اسمها « الشفاء » فى مكة ، فى دار عمه أبى طالب . تألقت دنيا آمنة نورًا وأنسًا وهى ترنو إلى وليدها المبارك تذكر به الحبيب الذى أودعها إياه ثم رحل .

استقبلته « الشفاء » على يدها ، وحضنته أم أيمن بركة الحبشية مربيته الأولى ، وأرضعته أمه آمنة بضعة أيام ثم أرضعته ثويبة جارية عمه أبى لهب أيامًا قليلة ، وقد أَعتَقَ أبو لهب جاريته ثويبة حين بشَّرتْهُ بمولد محمد ، وقد أَصبح العم أبو لهب بعد البعثة أبغضَ الناس إلى الله وإلى الرسول .

بعثت آمنة إلى عبد المطلب تبشره بمولد حفيده حيث كان يطوف الكعبة ، فأتاه ونظر إلى حفيده ، وأخذه ودَخَلَ به الكعبة يدعو الله ويشكر له ما أعطاه .

وفى سابع يوم لمولد الرسول الكريم أمر عبد المطلب بجزور فَنُحِرَتْ ، ودعا رجالات قريش فحضروا وطَعِمُوا ، وسألوه : لِمَ سَمَّى الطفلَ محمدًا . فقال : أردتُ أن يكون محمودًا فى السماء لله ، والأرض لخلقه .

وقد انبعثت ليلة مولد الرسول أنوار عظيمة أضاءت السماء ، وارتجت السماء والأرض لمولده . وغاصت مياه بحيرة (سَاوَة) وجفت جوانبها ، فى حين فاضت مياه دجلة ، واهتز عرش كِسْرَى ، وسقط كثير من أبراجه ، وانطفأت نيران زراد شت المقدسة التى ظلت مشتعلة ، دون توقف منذ آلاف السنين .

ومنذ ولادته وآمنة تنتظر اليوم الذى يشب فيه وحيدها اليتيم لكى تمضى به إلى يثرب فتزِيره قبر أبيه الثاوى هناك .

ومضت سنوات نما فيها عود محمد ولاحظت أُمُّه عليه ـ ولما يتجاوز السادسة من عمره ـ مَخايلَ الرجل العظيم الذى طالما تمثَّلَتْهُ ووعدت به فى أحلامها ورؤاها ، وبدأت أم محمد تتهيأ للرحلة الطويلة الشاقة إلى يثرب ، وتعد مئونة الطريق ، وزوَّدتْ ناقتها بهودج من أغصان مجدولة ، وتعلوه مظلة تحجب الشمس عن الابن العزيز .

وانضمت إلى أول قافلة تخرج من مكة نحو الشمال فى رحلة الصيف الموسمية هى والابن الغالى . تصحبها الجارية الوفية « بَرَكَة » أم أيمن .

وألقت آمنة نظرة وداع على الدار التى شهدت عرسها ومولد وحيدها ، ثم عرجت على الحرم فطافت بالكعبة داعية مبتهلة قبل الرحيل إلى يثرب .

وأناخ الركب رواحله فى يثرب للراحة والتزود بالتمر والماء ، ثم استأنف مسيره شمالا بعد أن ترك آمنة وولدَها فى حِمَى أخوال أبيه بنى عدى بن النجار .

وعطفت آمنة على ولدها فى حُنُوٍّ جَيَّاشٍ تحدثه عن أبيه ، وذلك البيت الذى مرض فيه ، وتزِيرَهُ القبر الذى ضم رُفاته ، وبينما انطلق الابن الغالى مع أبناء الخال عكفت الأم على قبر الحبيب تناجيه حينًا وتبكيه أحيانًا ، وهى على الحالين راضية مستريحة .

وطاب لها العيش هكذا شهرًا كاملا نَفَّسَتْ فيه عن حُزنها المكبوت ، وأسعفتها عيناها بما شاءت من دمع ، كما تمتع ولدها بصحبة رفاقه من بنى الخال .

ثم آن أوان الإياب ، وانتزعت آمنة نفسها من ذلك الجو المعطر بالذكرى ، وأسلمت نفسها لأشجانها ، والناقة تمضى بها وبمن معها نحو مكة .

وفى الطريق أحست أم محمد بضعف طارىء ، وكأنها أحست بالأجَل المحتوم ، وتشبثت بولدها معانقة وقد انهمرت الدموع من عينيها ، فأخذ الصبى العزيز يمسحها بيده الحلوة مستمرئًا لذة الحنان الغامر .

وفجأة تراخَت ذراعاها عنه ، فنظر إليها خائفًا قلقًا ، وراعه أن بريق عينيها يوشك أن ينطفىء ، وأن صوتها يخفت رويدًا رويدًا ليصير إلى حشرجة هامسة بكلمات الوداع حتى ذاب الصوت فى سكون العدم ، فما تكلمت آمنة بعد ذلك أبدًا .

وخيم على الكون صمت موحش مزقته صرخة الصبى اليتيم وهو ينحنى على جُثة أُمه يناديها فلا تلبى النداء .

والتفَتَ إلى بركة أم أيمن يسألها عن سر هذه الحياة التى انطفأت ، وسر هذا الجَسَدِ الذى همد وبرد ، وسر ذلك الصوت الذى تحشرج ثم ذاب ، فضمته المسكينة إلى صدرها ، ولم تملك إلا أن تقول فى استسلام : إنه الموت يا بنى .

إنه الموت الذى غَالَ أباك من قبل ، وجرع أمك كأس الترمُّل ، فما طاب لها عيش ، ولا اندمل له جرح مدى سبع سنوات طوال .

إنه الموت الذى يطوى الأعزاء فى جوف الثرى ، فلا رجعة بعده ولالقاء ، إنه الموت الذى يمضى بالمسافر إلى حيث لاعودة بعد ولا مآب .

وينظر الصبى اليتيم إلى أمه ، وبَرَكَة تلف الجسد الراقد ، وتعصب الوجه الذابل ، وتُغمض العينين المنطفئتين ، ويتبعها مطرقًا مستسلمًا وهى تحمل الجثة إلى قرية « الأبواء » وتجهزها لضجعتها الأخيرة ، حتى إذا أوشك الثرى أن يغيبها اندفع وحيدها اليتيم فتشبث يريد أن يستبقيها وأن يبقى معها .

وعلا نحيب القوم من حزن وتأثر ، فخلُّوه معها ساعة أو بعض ساعة ، ثم نَحَّوْهُ عنها فى رفق وأضْجَعُوها فى لَحْدِهَا ، وهالوا عليها الرمال .

وعادت مكة وهى تشهد الصبى الحزين الذى غادرها مع أمه منذ شهر وبعض شهر

بادى الغبطة والإشراق يعود إليها وحيدًا مُضاعَفَ اليُتْمِ ، حيث تَكَفَّلَ به جده عبد المطلب .

ولم تَدْرِ « بركة » أم أيمن وهى تودع جسد السيدة آمنة تلك الحفرة النائية أن الداخلة الكريمة قد تركت وراءها ذكرًا عريضًا ممدودًا يقهر الزمن ، ويغلب الفناء ، وما عرفت بركة وهى تبكى سيدتها فى ذاك القفر الموحش أنها سوف تعيش أبدًا ملء الحياة وملء التاريخ أمًّا للنبى العظيم ، والرسول الكريم الذى وضعته كما تضع كل أنثى من البشر، ثم خلفته يتيمًا فى الطريق إلى مكة . فما بلغَ مبلغَ الرجال حتى اصطفاه رب العالمين ليكون خاتَم الرسل والأنبياء ، وتراه الدنيا ما عاش يذكر ذلك المشهد لاحتضار أمه بين يديه فى جوف الصحراء ، ويذكر ويرق قلبه للراقدة فى قرية الأبواء .

فعن عبد الله بن مسعود قال : مر النبى ﷺ بالأبواء فى عمرة الحديبية ونحن معه حتى انتهينا إلى المقابر ، فأمرنا فجلسنا ، ثم تخطى القبور إلى قبر أمه فجلس إليه فناجاه طويلا ، ثم ارتفع صوته ينتحب باكيًا ، فبكينا لبكاء رسول الله ﷺ ، وقيل له فى ذلك فقال : « أدركتنى رَحْمَتُهَا فبكيتُ » .

ولم يكن لها أخت ولا أخ ، وكذلك لم يكن لرسول الله أخ ولا أخت .

وبعد . .

فتلك أعظم الأمهات وأفضل السيدات فى العالمين قاطبة ، التى أهدت البشرية أعظم هدية وأفضل وأحب إنسان إلى الله ، إنه رسول الله ﷺ ، محمد الذى أرسله الله رحمة للعالمين .

ويجدر بنا أن نعلق على ما ورد فى مختصر تفسير الإمام ابن كثير فى تفسير قوله تعالى فى سورة براءة :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ

﴿ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾[1].

بما يفهم منه أن أم النبى ﷺ وأباه ماتا على الشرك .

قال الإمام أحمد عن ابن بريدة ، عن أبيه ، قال : « كنا مع النبى ﷺ ونحن فى سفرٍ فنَزَلَ بنا ونحن قريب من ألف راكب فصلى ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان ، فقام إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال : فداك أبى وأمى يا رسول الله ، ما لَك ؟ قال : إنى سألتُ ربى عز وجل فى الاستغفار لأمى فلم يأذن لى فدمعت عيناى رحمة لها من النار . . . » الحديث .

وقال ابن أبى الحاتم عن عبد الله بن مسعود قال : خرج رسول الله ﷺ يومًا إلى المقابر فأتبعناه فجاء حتى جلس إلى قبر منها فناجاه طويلا ثم بكى فبكينا لبكائه ، ثم قام إليه عمر بن الخطاب فدعاه ثم دعانا فقال : « ما أبكاكم ؟ »فقلنا : بكينا لبكائك. قال : « إن القبر الذى جلست عنده قبر آمنة ، وإنى أستأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى » ثم أورده من وجه آخر وفيه : « وإنى أستأذنت ربى فى الدعاء لها فلم يأذن لى وأنزل عليه : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ .

وقال قتادة فى الآية : ذكر لنا أن رجالاً من أصحاب النبى ﷺ قالوا : يا نبى الله ، إنَّ من آبائنا من كان يُحسن الجوار ، ويَصِلُ الأرحام ، ويفك العانى ، ويوفى الذمم ، أفلا نستغفر لهم ؟ فقال النبى ﷺ : « بلى ، والله إنى لأستغفر لأبى كما استغفر إبراهيم لأبيه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ ثم عذر الله تعالى إبراهيم عليه السلام ، فقال الآية[2].

---

(١) سورة التوبة ـ الآيتان : ١١٣ ، ١١٤ .

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ـ المجلد الثانى للصابونى ـ ط دار القرآن الكريم ـ ببيروت ص ١٧٣ ـ ١٧٤ .

فالقول بأن الرسول ﷺ : بَكَّى مَنْ حوله لتعذيب أُمه ، وأن الله تعالى لم يأذن له ﷺ فى الاستغفار لأنها مشركة ، هناك ردود عليه : يقول القاضى عياض عن بكائه ﷺ : ليس لتعذيبها ، وإنما هو أَسَفٌ على ما فاتها من إدراك أيامه والإيمان به ، أما قوله ﷺ : « استأذنتُ ربى تعالى أن أستغفر لها فلم يأذن لى » فلم يُؤْذَن له ﷺ فى الاستغفار لها ، لأن الاستغفار يكون على المؤاخذة على الذنب ، ومَنْ لم تبلغه الدعوة لا يُؤاخَذ على ذنبه، فلا حاجة إلى الاستغفار لها ، ومَنْ قال إن عدم الإذن فى الاستغفار لكفرها ، والاستغفار لا يجوز ، قول غير سديد وغير صحيح .

فأبَوَا النبى ﷺ ناجيان ، ويؤكد ذلك :

(أ) أن أهل الفترة السابقة على الرسول ناجون :

يقول تعالى : ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (١) .

فما دام العذاب قد ارتبط ببعث الرسول فإن أهل الفترة السابقة على الرسول ، والذين لم يصل إليهم البلاغ عن الله ، هم الناجون من العذاب ، ويقول سبحانه وتعالى أيضًا :

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

ولا تعذيب قبلها ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ .

وقد أجمع الفقهاء على أن من مات ولم تبلغه الدعوه يموت ناجيًا . وقال السيوطى : هذا مذهب لا خلافَ فيه بين الشافعية فى الفقه والأشاعرة فى الأصول .

(ب) ليس فى سلسلة نسب النبى ﷺ كافر أو مشرك :

رسول الله ﷺ ـ من آدم عليه السلام إلى أن بعثه الحق نبيًّا ـ لم يكن فى هذه السلسلة

---

(١) سورة الإسراء ـ الآية ١٥ .

(٢) سورة البقرة ـ الآية ١٣٤ .

كافرٌ أو مشرك ، فملة نسب الرسول لم يدخلها كفرٌ أو شرك بالله ، ولا يقولن قائل : إن « آزَرَ » المشرك هو والد إبراهيم عليه السلام لأنه ليس والده إنما هو عمه . فيعلمنا الحق سبحانه وتعالى أن العم يكون فى مرتبة الأب ، وأن العم يمكن أن يطلق عليه أب ، قال تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

فهذا التحذير الشخصى لآزر إنما المقصود به العم ، ذلك أنَّ الحق لو أراد أن يحدد الأبوة الحقيقية لإبراهيم عليه السلام لقال : « وإذ قال إبراهيم لأبيه » فقط ، ولكنَّ تحديد الاسم هو تنبيه إلى أن أبوة آزر مقصود بها العم ، وقد أثبت الحق سبحانه وتعالى لنا أن الكفر يمكن أن يوجد فى العمومة ، وكان أبو لهب عمًّا للرسول ، ولذلك حين سأله كافر مشرك : أين أبى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أبى وأبوك فى النار » ، يقصد عَمَّه أبا لهب ولا يقصد أباه . كما ورد فى الصحيح عن العباس بن عبد المطلب أنه قال للنبى ﷺ : ما أَغْنَيْتُكَ من عمك أبى طالب ، فإنه كان يحوطك ويغضب لك . فقال : « هو فى ضحضاح النار ، ولولا أنا لكان فى الدَّرْكِ الأسفل من النار » . وقال رسول الله ﷺ فى حديثه الشريف بمعناه : « خلق الله الخلق واختار من الخلق بنى آدم واختار من بنى آدم العرب ، واختار من العرب مُضَر ، واختار من مضر قريشاً ، واختار من قريش بنى هاشم واختارنى من بَنِى هَاشِمْ ، فأنا خيار من خيار ، فمن أحب العرب فبحبى أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم » (٢) .

وفى صحيح البخارى أنه ﷺ قال : إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانه قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار » .

وفى صحيح البخارى أيضاً أنه ﷺ قال : « بُعثت من خير قرون بنى آدم ، قرناً فقرناً حتى كنت من القرن الذى كنت منه » .

---

(١) سورة الأنعام ـ الآية ٧٤ .

(٢) رُوِىَ فى الصحيحين .

ومن معانى القرن : السيد وآباء الرجل .

٣ ـ السيدة أسماء بنت أبى بكر :

بنت أبى بكر الصديق ، وكبرى بنات قتيلة بنت عبد العُزَّى ، وأخت عائشة ، وزوجة الزبير بن العوام ، وأم عبد الله بن الزبير . . . احتملت من المشاق فى سبيل رعاية رسول الله ﷺ فى هجرته ما لم تتحمله فتاة ، كانت تعد الطعام للنبى ولأبيها كل يوم وتحمله إليهما ، وتحمل قربة الماء وتتقدم كل مساء من مكة ، فتمضى فى هذه الصحراء الموحشة حتى تصعد الجبل فتزودهما به ، وتنقل إليهما الأخبار التى تكون قد جمعتها فى مطالع النهار .

وذات يوم صنعت طعاماً للنبى ، فلما لم تجد ما تربطه به شقت نطاقها وشدت به الطعام ، فقال الرسول : « إنها ذاتُ النطاقين فى الجنة » .

وفى صبيحة يوم الهجرة اقتحم بيت أبى بكر جمع غفير من خصوم النبى يسألون عنه ، ووقفت هى فى عزم وإصرار تجيب : لا أدرى . ومد عمرو بن هشام « أبو جهل» عدو الله يده إليها فى قسوة ولطمها لطمة أطارت قُرْطَها ، وكانت حاملاً بابنها عبد الله من زوجها الزبير بن العوام « حوارى رسول الله » ومع ذلك لم تهتز ، وأصرت على أنها لا تعرف شيئاً .

ولما انطلق أبو بكر مع رسول الله ﷺ أخرج أبو بكر ماله كله معه .

ودخل جدها أبو قحافة ـ وقد أصابه العَمَى ـ فقال : كيف حالكم يا أسماء ؟

فقالت : خير حال . فقال : والله إنى لأرَى أبا بكر قد فَجَعَكُمْ بماله كما فجعكم بنفسه . فقالت فى دهشة وإصرار : كلا يا أبتِ ، إنه لم يفجعنا ، إنه تَرَكَ لنا مالاً كثيراً، وأسرعت إلى بعض الحجارة فوضعتها فى كوة كان أبو بكر يضع فيها ماله ، وألقت على الحجارة ثوباً ، وأخذت بيد جدها الشيخ قائلة : ضع يدك على هذا . فاستراح الرجلُ ومَضَى ، قالت أسماء : والله ما ترك لنا أبو بكر شيئًا ، ولكنى أردتُ أن أُسكن قلب الشيخ .

وبعد شهر وبعض شهر من هجرة النبى ﷺ وصاحبه أبى بكر الصديق أقبل « زيد

ابن حارثة » ليصحب سيدات بيوت النبوة وبيت أبى بكر إلى دار الهجرة . وفى قباء حيث كان منزل الزبير بن العوام وضعت أسماء بنت أبى بكر « ذات النطاقين » وليدهما عبد الله بن الزبير ، فما التقطت أنفاسها من جهد الوضع حتى حملته إلى المصطفى ﷺ فوضعته فى حِجْرِهِ ، فتناول ﷺ تَمْرَةً مضغها لتلين ثم وضعها فى فم عبد الله ، فكان ريق المصطفى أول طعام لهذا الوليد المبارك ، واحتفلت دار الهجرة بمولده ؛ فقد كان أول مولود يُولَد لمهاجرين فى المدينة ، فكذب بذلك ما أشاعه اليهود من أنهم سحروا للمهاجرين فلن يُوَلَدَ لهم ولد .

وفى دار الهجرة عاشت أسماء مع زوجها الزبير بن العوام ، مع المصطفى ﷺ فى كل مشاهده وغزواته ، من بدر ، وأُحُد ، والخندق ، إلى الحُدَيْبِيَة ، وخيبر ، والفتح ، ويوم حُنَيْن ، وتَبُوك ، وحجة الوداع .

كما شهدت هى وزوجها غزوة اليرموك ـ وولدت له خمسة أبناء .

وفى الفتنة الكبرى التى مزقت الأمة الإسلامية فى جمادى الأولى سنة ٣٦ هـ ، إثر مقتل ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان ، خرج الزبير بن العوام مع أم المؤمنين عائشة أخت أسماء فى موقعة الجمل .

وعندما لمحه الخليفة الرابع على بن أبى طالب فيمن يقاتلونه أنكر موقعه فى هذه الفتنة ، فناداه وانفرد به ساعة انصرف الزبير بعدها عن القتال ، غير أنه لم يكد يمضى فى طريقه حتى لحقه نفر من بنى تميم ، ، فغافله أحدهم وقتله على غِرَّة ، فغضب الإمام على بن أبى طالب غضبًا شديدًا ، وقال لمن أخبره بقتل الزبير :

« بَشِّرْ قَاتِلَ ابنِ صَفِيَّةَ بالنَّار » .

وفى أعقاب أحداث الانقلاب الأموى ، وبعدما استُشهد الحُسين بن علىّ ، وكُلُّ مَنْ معه من أهل بيته فى مذبحة كربلاء ، عاد عبد الله بن الزبير إلى مكة حيث بُويعَ بالخلافة سنة ٦٤ هـ ، واجتمع على طاعته أهل الحجاز ، واليمن ، والعراق ، وخراسان ، فخرج جيش بنى أمية من دمشق بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفى ، وحاصر عبد الله بن الزبير فى مكة ستة أشهر ونصف الشهر، مصمماً على أن يفرغ منه ولو ضرب الكعبة بالمنجنيق .

وحين اشتد الحصار على عبد الله بن الزبير دخل على أُمه « أسماء » وقد أثقل عليها عبء شيخوختها وهدها الحزن على الأمة فيما يمزقها من فتن ، وقال لها :

« يا أُمَّاهُ قد خَذَلَنِى الناسُ حتى وَلَدِى وأَهْلِى ، فلم يبقَ معى إلا اليسير ممن ليس عنده أكثر من صبر ساعة ، والقوم يُعطوننى ما أَردتُ من الدنيا ، فما رأْيُكِ أنتِ » .

قالت أسماء :

« والله يا بنى أنت أعلم بنفسك ، إنْ كُنْتَ تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامْضِ له ، فقد قُتِلَ عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية ، وإنْ كنت أَرَدْتَ الدنيا فبئس العبد أَنت ، أهلَكْتَ نفسك ، وأهلكت مَنْ قُتِلَ معك .

وإنْ قُلْتَ كنتُ على حق فلما وهَنَ أصحابى ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين . كم خلودك فى الدنيا؟ القتل أحسن ، والله لَضَرْبَةٌ بالسيف فى عز أحب إلىَّ من ضربة بالسوط فى ذل » .

قال عبد الله : إنى أخافُ إنْ قتلونى أن يُمَثِّلُوا بِى !

قالت أسماء : يا بنى إنَّ الشاة لا يَضِيرُهَا سَلْخُها بعد ذبحها .

فدنا منها وقَبَّلَ رَأْسَهَا وقال : هذا والله رأيى .

فلما قتلوه وعلقوه أياماً خرجت ، وكانت قد ذَهَبَ بصرها ، فمضت إلى الحجاج وقالت :

أما آن لهذا الفارِس أن يترجَّلَ ؟ وبعد ثلاثة أيام غَسَّلَتْهُ وَصَلَّتْ عليه ، فما أتت عليها جمعة حتى استراحت من عبء الحياة ، وشَيَّعَتْ أُمُّ القُرَى أسماء بنت أبى بكر إلى مثواها الأخير فى ثرى البلد الحرام . رضى الله عنها وأرضاها(١) .

---

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام . والسيرة النبوية لابن إسحاق .